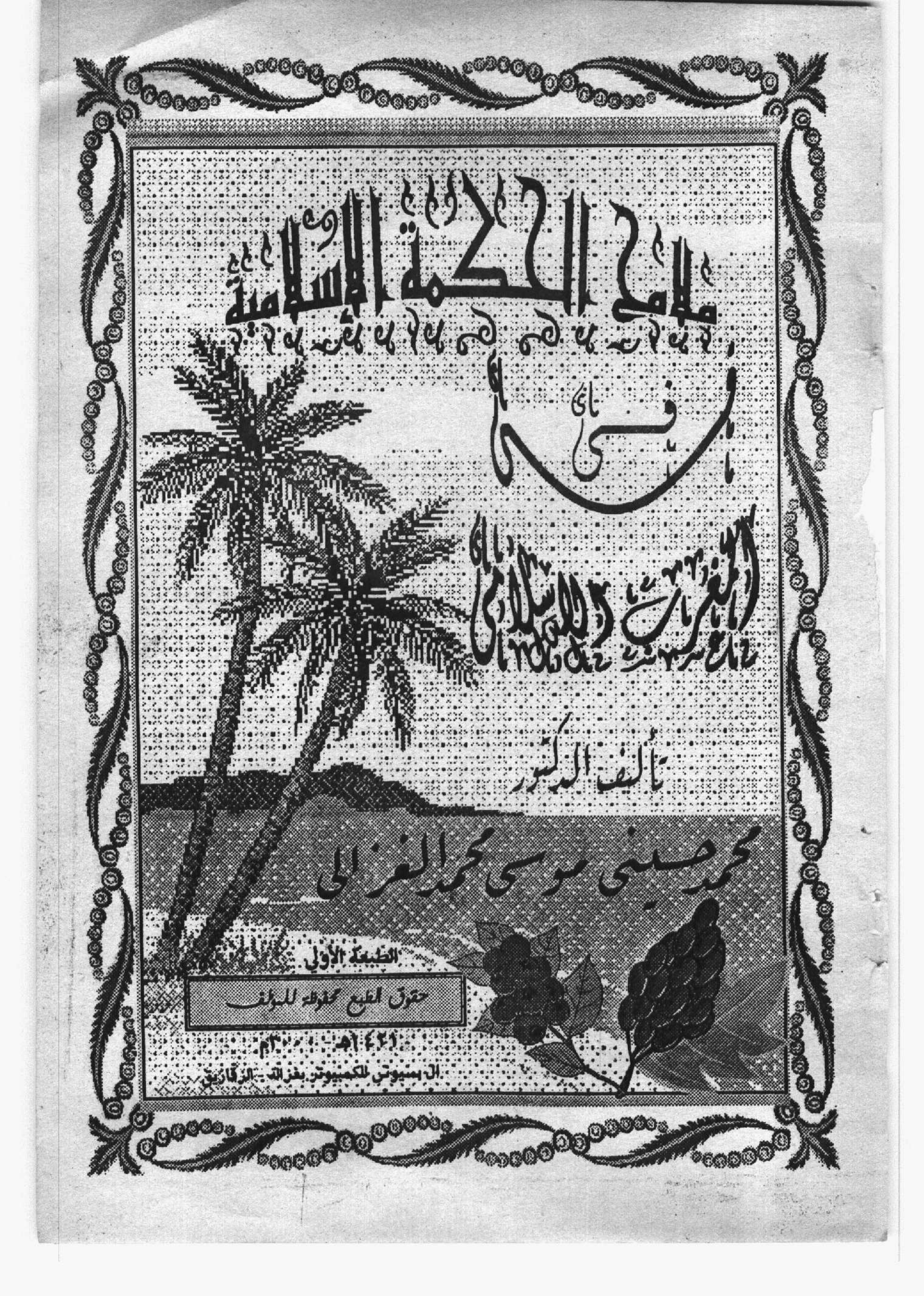
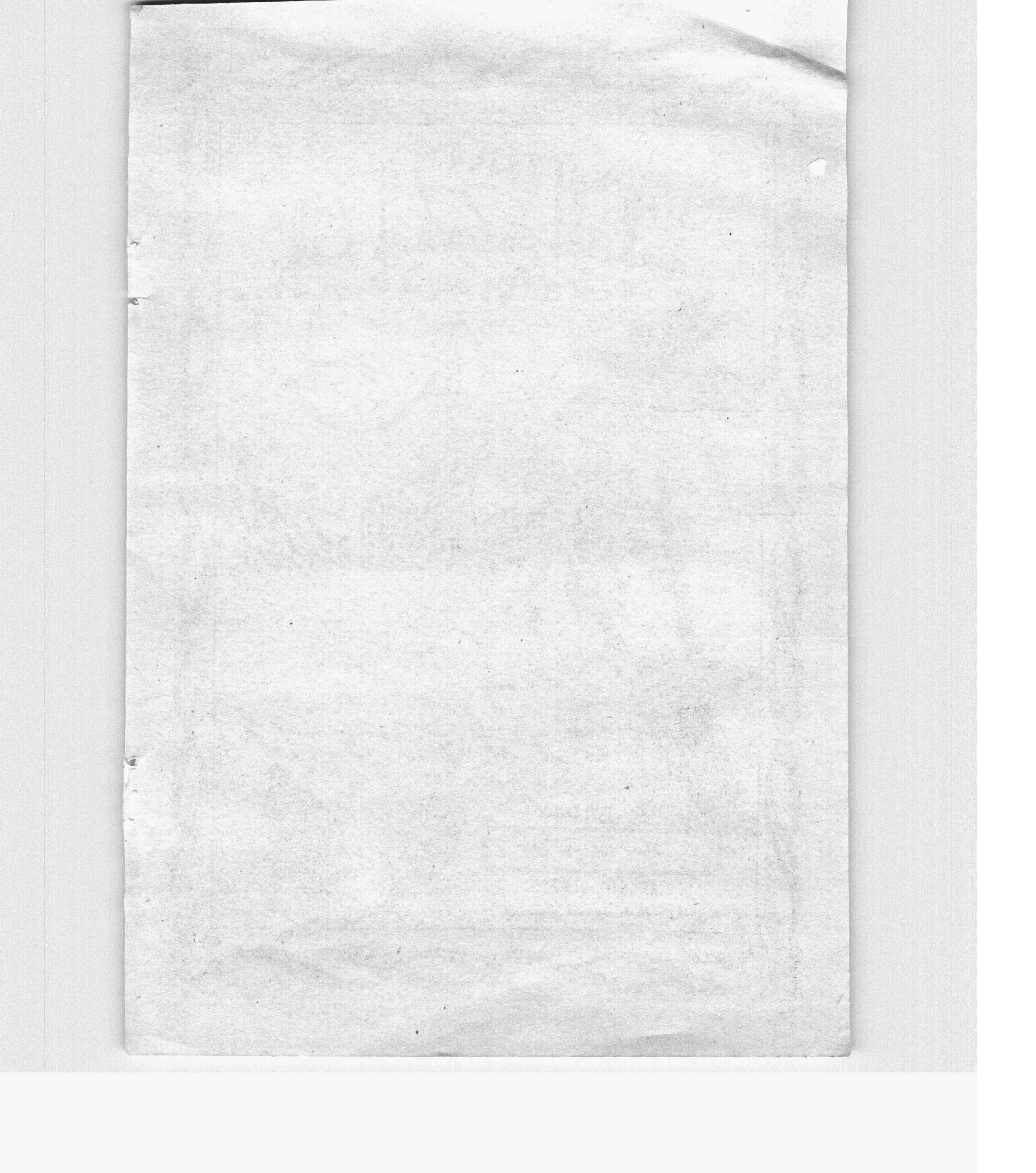


ملامح الحكمة الإسلامية
في
التراث الإسلامي
تأليف الدكتور
محمد حسيني موسى محمد الغزالي
الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م
البسيوني للكمبيوتر بغزالة - الزقازيق




بسم الله الرحمن الرحيم
إهداء
إلى.....
العالم التقى الأديب المكرام
ذى النفس الأبية الهمام
شيخى
الأستاذ الدكتور
عبد العاطى غريب علام
أستاذ البلاغة بجامعة الأزهر
تحية حب واحترام
دكتور
محمد حسينى موسى محمد الغزالى



مقدمة

الحمد لله رب العالمين جعـل فـي خلقـه عبـاده المرسـلين . قـال تعـالى ﴿ " انـا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من أمة إلا خلا فيها نذير" ﴾[1] ،وقال تعالى ﴿" ولقد صدقت كلمتنا لعبادنا المرسلين"﴾[2] ، وميزهم بالبلاغ المبين لئلا تكون هناك حجة عند المكلفين ، قال تعالى ﴿" لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسـل وكـان الله عزيـزا حكيما"﴾[3] وصير العقل فى الخلائق دلالة على المتميزين ، فكـانوا قـادة فـى عـداد المفكرين ، وهداة تضيء جنبات الحائرين ، طالما كـانوا بكتـاب الله ملتزمين ، وبسـنة نبيه المصطفى الخاتم سيدنا محمد بن عبدالله مقتدين .

وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا اله سواه . قضى بما فى علاه ، وقدّر على وفق ما قضاه ، وأجاب دعاء من ناداه ، قال تعالى﴿ " وقال ربكم أدعونى أستجب لكـم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين "﴾[4] ، فصار أهـل الطاعـة هـم أهل الله ، أما غيرهم فبات كلٌّ مـن أتبـاع هـواه ، حتـى وقـع عليـه الغضـب ، وتلـك عقباه ، لأنهم كانوا لأهل الشيطان حداة .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٧ .

(٣) سورة النساء الآية ١٦٥ .

(٤) سورة غافر الآية ٦٠ .

أما أهل الله ، فان الواحد منهم يعمر قلبه نور الله ، ويراقبه فى السر والعلن ، ويعلم أنه سيحاسبه على النقير والقطمير ، والصغير والكبير ، وبذلك سيكون سلوكه مستقيما ، وعمله سليما وسرائره نقية[1] ، وجوانحه تقيه ، وأوامر الشرع عنده مرضية .

وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله زكاه مولاه فقال تعالى ﴿" وإنك لعلى خلق عظيم"﴾[2] ، وأقسم به الله فقال جل علاه فى محكم هداه ﴿" لَعَمْرُكَ إِنَّهم لفى سكرتهم يعمهون "﴾[3] ، وجعله الله رحمة للعالمين فقال تعالى ﴿ " وما أرسلناك الا رحمة للعالمين "﴾[4] ، وخاتما للأنبياء المرسلين . قال تعالى ﴿ " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما "﴾[5] .

وكذلك جاء به الخبر الصحيح فقال ﷺ أنا العاقب فلا نبى بعدى[6] ، وقال ﷺ « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون »[7] .

---

(١) الدكتور إبراهيم على أبو الخشب - القرآن وشيجة المسلمين ص١١١ - ط دار الفكر العربى .

(٢) سورة القلم الآية ٤ .

(٣) سورة الحجر الآية ٧٢

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ ، وقد فصل هذا الجانب العلامة الشيخ / محمد نووى الشافعى فى كتابه القيم ، نور الظلام " - حاشية على منظومة عقيدة العوام للشيخ المرزوقى ، وبين فيها انه مرسل للملائكة إرسال تشريف ، وللإنس والجن إرسال تكليف ، وللحيوان إرسال رحمة وتخفيف ، وللجماد إرسال تأمين من الخسف ، وقد أفاض فيها بالأدلة النقلية - رحمه الله وجعل الجنة مثوانا ومثواه - .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٦) رواه الإمام البخارى ومسلم ، وهو متفق عليه من حديث طويل ، والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ، والقرآن الكريم ذكر ذلك قال تعالى ﴿" ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين .

(٧) رواه الإمام البخارى ومسلم والترمذى ، وابن ماجه والأحاديث النبوية الشريفة ، والنقل القرآنى عليه ومن ثم فلا التفات لما ينطبق به أصحاب الهوس العقلى والحسد أو أهل الضلالة أجمعين

اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، وأتباعه من أهل الله أجمعين ، وأهل العلم بالله رب العالمين ، العاملين بشرع الله المتكاملين ، الواقفين عند تعاليمه متأملين ، وأغفر لوالدينا، ومشايخنا ، وذرارينا ، وأزواجنا ، وأحفادنا من البنات والبنين ، وألحقنا وهم فى الصالحين .

أما قبل

فان الفكر الإسلامى ما يزال وسيظل رطبا نديا ، أصيلا قويا ، للمتطلبات وفيا ، بالخير الكثير حريا ، تفيض جنباته بالتأمل والتدقيق بجانب العمق والتحقيق فى كافة المجالات التى ينطلق اليها ، أو يقوم بمعالجة مسائلها وقضاياها ، حتى صار ذلك الفكر الإسلامى النبيل هو الحكمة الإسلامية ذاتها : أما لماذا ؟

فالجواب أن الحكمة فى الشرع تنقسم إلى :-

[١] حكمة الأنبياء – النبوة –

وهى النبوة . قال تعالى ﴿ " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكا عظيما " ﴾[١] ، ومن المقرر أن النبوة فى بنى إسرائيل كانت فى أولاد إبراهيم عليه السلام وأنهم توارثوا الصحف التى أنزلت على إبراهيم الخليل عليه السلام حاملة النبوة والأحكام العقدية والشرعية والأخلاقية[٢] التى تعرّف الناس بالخالق العظيم جل علاه ، وتصلح لهم أمور المعاش والمعاد ، حتى تتحصل لهم السعادة الدنيوية والأخروية .

قال العلامة ابن كثير : الحكمة هى النبوة[٣] ، التى جعلها الله مع كل نبى بجانب الكتاب الذى جاء به ، حتى يكون بالنبوة ملهما وقائدا وقدوة ، وبالكتاب مبينا ومرشدا ، معلما ومبينا ، ولذا كانت حكمة الأنبياء وهى النبوة ، متميزة عن كل حكمة

---

(١) سورة النساء الاية ٥٤ .

(٢) راجع كتابنا : قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ص٨٦ ط الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م

(٣) العلامة ابن كثير – تفسير القرآن الكريم – المجلد الأول ص٤٤٧ ط الشعب .

أخرى ، كما يتميز النبى عن باقى البشر ، وهى للنبى هبة من الله تعالى ومنحة ، فالنبوة هى طريق إلى الحكمة الإلهية مختصر مأمون ، ويختص الله به من اصطفاهم من عباده ، وهو الفاعل المختار[١] جل علاه ، وما قضاه يجرى به قدره[٢] ، على وفق التمام والكمال مع الإتقان والأحكام .

[٢] حكمة غير الأنبياء

وهى التى تقوم على التفكير العقلى الصواب ، والسلوك السوى ، والإتيان بالشيء على وجه الكمال الممكن بالنسبة لصاحبه ، وهى تأتى عن طريق الدرس والبحث ، ومجاهدة النفس ، ورياضتها مع تدريبها على السير بمقتضى الحكمة ، وهى لذلك غير حكمة الأنبياء التى تأتى منحة وهبة منه تعالى لمن يشاء من عباده ، وفى الحديث الشريف : " الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها لا يبالى من أى طريق جاءت "[٣] ، إذ الغرض هو الوصول اليها على ما وفق الشرع الشريف .

ولما كان الفكر الإسلامى الملتزم ، هو الذى يمثل الحكمة الإنسانية التى حث عليها الشرع الشريف باعتبار ان النبوة هى الحكمة النقلية ، فان ذلك الفكر الإسلامى ما تزال أنواره وضاءة فى جبين الدهر ، علامة على تميز المفكرين المسلمين أينما كانوا ، واهتمامهم بشرع الله رب العالمين ، فى كافة الأمور المتعلقة بالدين والدنيا ، على النحو الذى بلغهم به خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وجاء ذكره فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف الصحيح ، وذلك مما تشهد به العقول السليمة ، والضمائر النقية ، والفطر التى لم تصيب بالعمى العقلى العمى أو التلوث الوجدانى .

---

(١) الشيخ عبدالوهاب النجار – قصص الأنبياء ص٣٧٠ – مكتبة التراث – ط٢

(٢) ذهب جمع من المسلمين الا أن القضاء الإلهى هو الحكم والكتابة والتدوين ، وظواهر الآيات القرآنية يؤيدهم ، كما ذهبوا إلى ان القدر الإلهى هو تنفيذ ما جرى به القضاء ، وذهب غيرهم إلى العكس فيهما – راجع كتابنا " الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى " .

(٣) العلامة الفشنى – شرح الفشنى على الأربعين النووية ص١٢٥ .

بيد أن الفكر الإسلامى لا يعـرف الانحصـار فـى موضوعـات بعينـها ، والا كـان اهتمامه منصبا عليها دون غيرها ، ومن ثم لا يكون فكرا عالميا ، بل يكـون محليـا[١] ، كما لا يعرف التعصب ، والا فقد الموضوعية ، ومن ثم فإنه يكون فكرا غير منضبط ، كما لا تكون لقواعده قيمة ، ولا لقضاياه فائدة ، ثم هو فوق ذلـك لا يعـرف الانحصـار فـى مكان ما ، والا كان منحصرا فيه ، ومتقيدا به ، وحينئذ سيفقد عالميته المطلقة متى قيد نفسه بموطن معين ، أو موضوع بذاته .

بل أن الفكر الإسلامى و الوحيد المتصل السند الصحيح بالقرآن الكريم والحديـث الصحيح ، فلم يعرف الفكر المنصف فى قاعات البحث العلمى لكتاب مقدس ، معصـوم سندا متصلا متسلسلا صحيحا مدللا على تسلسله وصحته بالتاريخ الصادق ، غير السند الإسلامى والوحى الإسلامى[٢] ،وبناء عليه فان الفكر الإسـلامى هويتـه هـى الإسـلام ، وموضوعاته هى القضايا الإسلامية التى نبه اليها الدين الإسلامى الحنيف ، ومكانه هو العالم كله ، وهو يساوى حكمة غير الأنبياء ويفوقها ، بل هو الوحيد بعد النبـوة الـذى يمكن وصفه بأنه حكمة على سبيل الحقيقة ، وان وصف بها غيره ، فعلى سبل أخرى غير التى جاء منها الفكر الإسلامى .

وبناء عليه فان الفلسفة الإسلامية هى الحكمة القائمة على المعرفة الحقة بالله رب العالمين ، وهى فى ذات الوقت المعرفة بالله التى تتضمن المعرفة بالخير والعمـل بـه[٣] ، فهى معرفة بالله وهو العلم ، وعمل بما قضى الله وهو العمل ، والـتزام بمـا حـث عليـه شرع الله ، وهو القيم الأخلاقية الإسلامية الرفيعة .

---

(١) راجع كتابنا – لماذا انتشر الإسلام ص٢٧١ ط الثالثة ١٩٨٩م .

(٢) الدكتور متولى يوسف شلبى الشهير بروف شلبى – الوحى فى الإسلام وأهميته فى الحضارة ص٧ ط أولى ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م – مطبعة حسان .

(٣) الدكتور عبدالحليم محمود – التفكير الفلسفى فى الإسلام ص١٩٨ – دار المعارف ط٢ ١٩٨٩م .

وذلك الفكر الإسلامى هو الحكمة الإسلامية – من وجهة نظرنا – فى موضوعاتها المختلفة الذى أصطلح على تقسيمه إلى قسمين باعتبار الدراسة من حيث المكان ، وسمى كل قسم منهما باسم الجهة التى ظهر فيها ، وان كانت الموضوعات التى تعالج هى نفسها ، وهذا التقسيم فى الدراسة يتناول أمرين :-

- **الأول : الفلسفة الإسلامية فى المشرق الإسلامى .**
- **الثانى : الفلسفة الإسلامية فى المغرب الإسلامى .**

وان شئت قلت : الفكر الإسلامى فى المشرق الإسلامى ، والفكر الإسلامى فى المغرب الإسلامى ، ولا تقل فى الشرق والغرب ، لما بينهما من فوارق عديدة ، باعتبارات متنوعة ، ومن الطبيعى القول بأن الفكر الإسلامى هو الصورة الحقيقية للعقلية الإسلامية ، وقدرتها على النظر والتفلسف ، وكذلك هو المعبر عن الشخصية المسلمة فى تأملها وانطلاقها[1] نحو فهم ذلك النقل المنزل .

ونحن فى هذه الدراسة سنخص الحديث عن ملامح الحكمة – أو الفلسفة – الإسلامية فى المغرب الإسلامى ، لاعتبارات معينة نراها ضرورية فى هذا الوقت الراهن بالذات ، وسنجعل الحديث فيها يدور حول النقاط التى تتعلق بعوامل سبق ظهورها فى المشرق وتأخرها فى المغرب الإسلامى ، ثم التعرض للدواعى التى مهدت لظهورها فيه ، كما نحاول تقديم لمحة عن أثر الظروف فى تكوينها ، مع بيان تطور الفكر الفلسفى الإسلامى بالمغرب ، ومظاهر ذلك على الحياة العقلية هناك ، مع محاولة التعرض لكل من " المناهج والتاريخ الفلسفى " ، ثم إلماحة إلى بعض الرجال والنظريات ، أو الأفكار والموضوعات حتى نبرز بعضا من جمال الفكر الإسلامى أو الحكمة الإسلامية ، فى بلاد المغرب الإسلامى ، ولذا فإنى سميته " ملامح الحكمة الإسلامية فى المغرب

---

(١) الدكتورة سهير فضل الله – الفكر الإسلامى يرد على المستشرقين ص٧ ط المكتب المصرى .

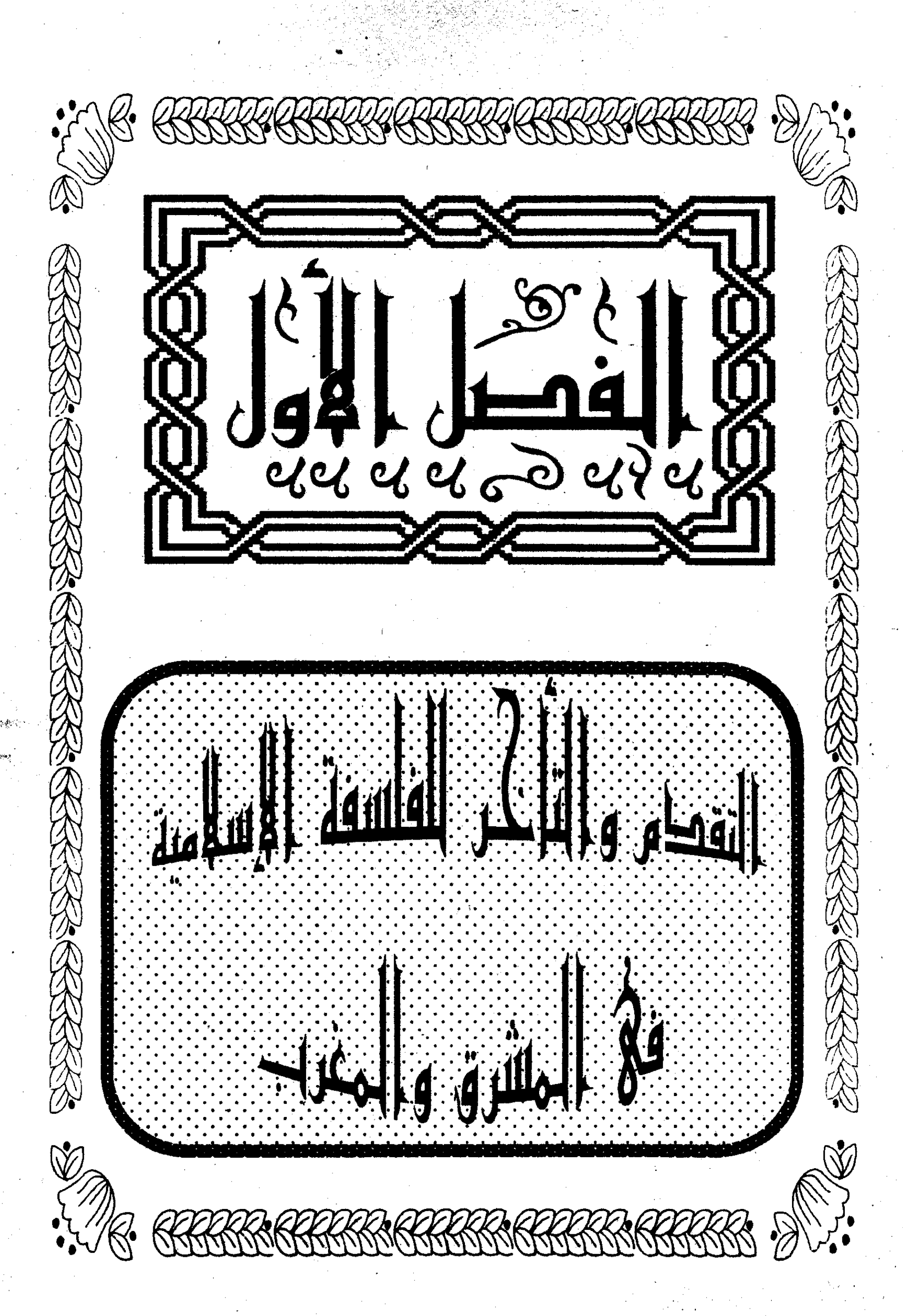
الإسلامى "[1] ، سائلا الله تعالى العون والتوفيق والقبول والتيسير والسداد ، أنه نعم المولى ونعم النصير ، ﴿" ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد "﴾[2] ، وصلى اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وأصحابه وسلم .

الدكتور
محمد حسينى موسى محمد الغزالى
غزالة الخيس - الزقازيق - شرقية
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م
ت: ٠٥٥/٢٢١٠٧٥ - ٠٥٥/٢٤٨٦٢٥

---

(١) كم أتمنى أن تكون الكتب المؤلفة فى هذا الجانب من الناحية الإسلامية ، تحت اسم الحكمة الإسلامية ، فهى تسمية شرعية ، وأن نهجر لفظ الفلسفة ، أو يتم استعماله على أنه معبر عن فكر أصحابه من غير المسلمين فقط - راجع كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٤ .



الفصل الأول

التقدم والتأخر للفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب

[أ] عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية فى المشرق الإسلامى مبكرا عنه فى المغرب الإسلامى

يذهب الكثيرون من مؤرخى الفكر الفلسفى الإسلامى إلى أن الحكمة الإسلامية أو الفلسفة الإسلامية ظهرت فى بلاد المشرق الإسلامى[١] ،مبكرة جدا عنها فى بلاد المغرب الإسلامى ، وأن ذلك كانت له الأسباب العديدة التى قام عليها ، من أبرزها إجمالا :-

(١) القرب المكانى للمشرق الإسلامى من مهبط الوحى

المعروف على سبيل اليقين القطعى أن سيدنا محمدا ﷺ قد بعث – باعتبار المكان الذى ولد فيه – فى جزيرة العرب أولا على سبيل الإبلاغ لها ، ثم انتشرت دعوته فى كل ما جاورها حتى انتهى أمرها بالعالمين جميعا ، لقوله تعالى ﴿" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"﴾[٢] ، وقوله تعالى ﴿" وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"﴾[٣].

ومن الثابت أيضا أن أغلب من دخلوا الإسلام فى تلك الفترة الأولى من عمر تبليغ الرسالة الإسلامية الخاتمة ، كانوا من أهل الجزيرة العربية[٤] ، والبلدان المجاورة لها ،

---

(١) يقصد بالمشرق الإسلامى هنا المجاور لمهبط الوحى فى مكة المكرمة من جهة المشرق على سبيل التغليب واعتبار هؤلاء الغالبين من جماعة أهل الإسلام سواء كانوا عربا خلصا ، أو كانوا عربا باللسان ، أو كانوا مسلمين مع احتفاظهم باللغة التى كانوا يتعاملون معها .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨

(٤) الدكتور عبدالرحمن محمد المنوفى – الدولة الإسلامية فى مراحلها الأولى ص٤٤ ، وكذلك كان خصومها الأوائل من ساكنى الجزيرة العربية ، أو البلدان المجاورة لها .

أو التى لها تعاملات مع أصحابها تقتضيهم ظروفها الاحتكاك المباشر بهم على نحو من الأنحاء أو شكل من الأشكال[١] .

وأن هؤلاء الذين مر ذكرهم قد عرفوا خبر النبوة فى الواقع المعاش من خلال السلوكيات التى طالعوها[٢] ، أو عن طريق الأحناف الذين كانوا على علم بالنبوة الخاتمة ويبشرون بقربها فى حلّهم والترحال[٣] ، أو الرهبان الذين كان لديهم ولع بكتبهم معرفة بها واستظهارًا لها[٤] ، من باب التعرف على ما فيها وإذاعته والإعلان عنه ، وكان ذلك من أمر النبوة الخاتمة ، ورسولها الكريم سيدنا محمد ﷺ .

ونظرا لقرب بلاد فارس والروم ومصر من جزيرة العرب ، فقد كان المؤمنون بالله تعالى مع سيدنا محمد ﷺ من أهل تلك البلاد يترددون على مهبط الوحى ، موئل النبوة ، حتى يتعرفوا أوامر الشرع ومذاهبه ، كما يتناولون قضاياه وأحكامه بجانب مسائله التى بات بحثها أمرا شرعيا واجبا ، أما إهمالها فقد أمسى مخالفة شرعية لا يمكن قبولها أو التهاون فيها[٥] ، وهو الذى أبلى فيه أهل الإسلام البلاء الحسن .

---

(١) الأستاذ خالد محمد عبدالبديع = تاريخ الأمة الإسلامية جـ١ ص٩٧ ، كالحال مع أهل فارس الذين كان منهم سيدنا سلمان الفارسى رضي الله عنه المعروف بالباحث عن الحقيقية .

(٢) العلامة ابن هشام - سيرة النبى محمد e جـ١ ص١٤٥ - الذى كان يمارسه الرسول ﷺ والصحابة الكرام معه ، وفى كل حال من أحوال أمورهم التى عبرت عن بعضها سلوكياتهم .

(٣) كالحال مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نُفيل ، وقس بن ساعده الأيادى وكثيرون غيرهم ممن عنى بذكرهم أصحاب السير ، كسيرة ابن هشام ، وابن كثير والسيرة الحلبية ،الروض الأنف .

(٤) الدكتور محمود محمد زياده - العرب وظهور الإسلام ص١٨٣ ، كما فعل بحيرى الراهب الذى أخبر أبا طالب عن نبوة سيدنا محمد ﷺ - راجع الأعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام للعلامة القرطبى .

(٥) وذلك شأن المسلم العاقل فانه يحافظ على شرع الله بكل ما يمليه من قدرات عقلية أو غيرها .

بيد أن هذا القرب المكانى قد ساهم فى تعرف هؤلاء وأولئك على كل ما يتعلق بالوحى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وسمح لهم كذلك بسهولة التردد المستمر على مهبط الوحى يتعرفون من رسول الله ﷺ وصحابته الأكرمين كل ما يريدون التعرف عليه فى أمور دينهم وقضايا عقيدتهم ومسائل شرعتهم ، حتى إذا استقرت نفوسهم وهدأت خواطرهم ، واستراحت فى رحاب الإيمان قلوبهم انطلقوا إلى تعاليم الإله جل علاه يطبقونها على أنفسهم سلوكا بعد أن تمكنت منهم اعتقادا وإيمانا[1] ، وكان لذلك كله آثار عديدة فى نفوس المتابعين لها .

على أن ذلك كله قد سمح لهم بالنظر المستمر فى آلاء الله تعالى التى جاء ذكرها فى النقل المنزل ، والتأمل الدائم لما فى الملكوت الشاهد ومطابقته بما جاء فى النقل المنزل ، أو بمعنى أخر حاولوا تطبيق الإيمان القلبى على المعرفة العقلية[2] ، فكان من نتاج ذلك الفعل ظهور أنواع من الإبداعات الفكرية داخل نصوص النقل المنزل نفسه ، ومجموع هذه الإبداعات هو الذى قامت عليه الحكمة أو الفلسفة الإسلامية فى وقت مبكر داخل المشرق الإسلامى قبل المغرب الإسلامى .

(٢) السبق الزمانى للإسلام فيه

بعث الله جل علاه سيدنا محمد ﷺ فى مطالع العقد الثانى من القرن السابع الميلادى ٦١٠م حيث ولد حبيبنا محمد ﷺ عام ٥٧٠م[3] ، ونبئ ﷺ وهو فى سن الأربعين ، وأقام بمكة يدعو الناس إلى الله تعالى ، ويغرس فيهم أصول العقيدة الإيمانية

(١) إذن هناك فرق بين الإيمان والمعرفة – فالأول محله القلب ، أما الثان فمكانه العقل لا كموضوع ، وإنما كوسائل أيضا لذلك الذى يمكن تناوله .

(٢) راجع كتابنا – المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية أثناء حديثنا عن عوامل نشأة الحكمة الإسلامية .

(٣) الدكتور / محمد حسين هيكل – حياة محمد ص٢٧ .

ثلاثة عشر عاما هى عمر الدعوة الإسلامية فى مكة المكرمة ، ثم خرج منها مهاجرا بإذن الله تعالى وأمره إلى المدينة المنورة التى استنارت برسول الله ﷺ [١] ، وطابت به ، فصارت تدعى طيبة ، كما كانت يثرب ، والمدينة المنورة[٢] .

وقد أمعن أصحاب رسول الله ﷺ فى التعرف على أهداف وغايات الوحى المنزل . فى الوقت الذى لم يكن غيرهم فى البلاد الأخرى قد تعرف على الإسلام الا من خلال المعلومات المنقولة بعضها مما قصد به الإساءة للإسلام[٣] ، وتصويره على أنه سلبيات فقط ، وبالتالى تكون الأفكار التى جاءتهم عن الإسلام ناقصة غير متكاملة ، مشوهة غير صحيحة .

على ان هؤلاء الأوائل فى الإسلام كلما أمعنوا النظر فى كتاب الله تعالى وأنعموا التأمل فيه ازدادوا إيمانا على إيمانهم وحكمة فوق حكمتهم ، حتى ارتفعت مداركهم الفكرية إلى أعلى مكان ، وهم فى كل حالاتهم ينقلون هذه المفاهيم إلى من يتعاملون معهم ، ويراجعونها فيما بينهم مما ساعد على إيجاد أفكار إبداعية لديهم[٤] ، هى نتائج لما أفرزته التأملات العقلية فى النصوص الدينية .

---

(١) الأستاذ / طه عبدالعظيم محجوب - الدعوة الإسلامية فى مراحلها الأولى ص٣١ .

(٢) هى بعض أسماء المدينة المنورة فى الجاهلية وفى الإسلام أيضا - راجع : فى رحاب الحرمين ص١٩٣ - الأستاذ جمال الدين أبو طالب ١٩٦٢م .

(٣) فعل ذلك اليهود بدهاء وخبث شديدين ، ففى كل بلد دخلوه كانوا يحاولون تعبئة الشعور العام بالعداء للإسلام ، وشاركهم فى ذلك الكثيرون من دعاة المسيحية المتطرفين - راجع كبوات المستشرقين ص٤٥ للأستاذ / محمد بخيت طاحون .

(٤) الأستاذ / غريب محمد أبو الوفا - من التراث الإسلامى ص٧١ .

وكان هؤلاء المتعاملون مع النقل المنزل من المسلمين يحرصون على مدارسة ذلك النتاج العقلى المتميز وتدريسه فصار من الطبيعى أن تظهر من أفكار فلسفية فى المشرق الإسلامى مبكرة جدا عن غيره من بلاد الإسلام الأخرى[١] ، التى لم يقدر لها وجود مثل ذلك النشاط العلمى بعد وجود القاعدة الإيمانية ، وان وجد فيها أفراد قلائل مسلمون .

فى نفس الوقت فان هذا السبق الزمانى فى الدخول إلى رياض الإسلام قد ساعد أولئك الأوائل على التناول الدائم للقضايا التى تناولتها الآيات القرآنية على سبيل الإجمال أو التفصيل الواردين فى النقل المنزل ، ومحاولة إيجاد حلول لبعضها مما عرضه النقل المنزل حتى يجد العقل المسلم فى طلبه[٢] ، ومحاولته البلوغ فيه إلى أقصى ما يمكن له .

ولاشك أن ذلك كله قد أفرز العديد من النتائج التى تفتح الباب لمستجدات علمية ، كما تعرض للكثير من المسائل التى تجىء عرضا أو غرضا ، ونبه للأكثر من المشكلات التى طلب الشرع من العقل الإنسانى أن يجتهد فى تناولها بكل ما أتيح له من إمكانيات ويبحث لها عن حلول تكون قابلة للتطبيق ، وغير مناهضة لأحكام العقل الصحيحة .

من ثم فان ظهور الفلسفة أو الحكمة الإسلامية فى المشرق الإسلامى قبل ظهورها فى المغرب الإسلامى أمر طبيعى[٣] ، فرضه القرب الزمانى الشديد من أنوار النبوة الخاتمة على ما هو مبين فى كتب الرجال والتراجم ، وما عرضته كتب السير ، وتاريخ

---

(١) هناك فرق بين البلاد التى فيها مسلمون بعد الفتح الإسلامى وقبل الفتح الإسلامى .

(٢) الأستاذ بركات عبدالعظيم - دراسات قرآنية ص١٢١ .

(٣) الدكتور / فخرى عبدالسلام مرسى - دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص١٢٣ .

الفكر الإسلامى بهذا الشأن مما يعتبر بحق أحد عوامل سبق الفلسفة الإسلامية فى المشرق الإسلامية لقرينتها فى المغرب الإسلامى ، ويؤكد أصالتها ، واستقلالها عن غيرها من الفلسفات الأخرى أيضا[1] ، فى الشرق أو الغرب على السواء .

وربما يقال : أن الإسلام دخل الأندلس فى زمن رسول الله ﷺ ، وكانت تجيب قد دخلت فى الإسلام فى زمن مبكر جدًا ، وأنهم أقبلوا بوفودهم على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة مرات عديدة ، ويحملون ذكواتهم والصدقات ، وتكرر ذلك منهم .

ويذكر أن وفد من " تجيب " مكون من ثلاثة عشر رجلا قدموا إلى رسول الله ﷺ ومعهم صدقاتهم التى فرضها الله تعالى عليهم ، فسر رسول الله ﷺ بها . وأكرم منزلهم ، وأنهم قالوا : يا رسول الله سقنا إليك حق الله تعالى فى أموالنا ، فقال رسول الله ﷺ ردوها فاقسموها على فقرائكم ، فقالوا يا رسول الله ما قدمنا عليك الا بما فضل عن فقرائنا ، فقال أبو بكر الصديق ﷺ يا رسول الله ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحى من " تجيب "[2] ، فقال رسول الله ﷺ : أن الهدى بيد الله عز وجل . فمن أراد أن به حيرا شرح صدره للإيمان[3] .

---

(١) عرضنا لذلك بالتفصيل فى كتابنا - المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، وأكدنا أن الأصالة والاستقلال قائمان فى الموضوع والغاية بعد التسمية والمنهج .

(٢) هى التى ينتسب اليها ابن باجه فى أجداده الأقدمين ، ولذا يقال عليه ابن باجه التجيبى ، وباجه هى إحدى مدن تونس .

(٣) العلامة ابن القيم - زاد المعاد فى هدى خير العباد - جـ٣ ص٤٦ وما بعدها - المطبعة المصرية .

ويذكر الرواة أن وفد " تجيب " هذا أخذوا يسألون رسول الله ﷺ عن أشياء فكتب لهم بها إجابات واضحة ، ثم راحوا يسألونه ﷺ عن القرآن والسنن ، فازداد رسول الله بهم رغبة وأمر بلالا[1] أن يحسن ضيافتهم ، فأقاموا أياما ولم يطيلوا اللبث .

فيقل ما يعببكم ؟ فقالوا : نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ ، وكلامنا إياه ، وما ورد علينا .

ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يودعونه ، فأرسل إليهم بلالا فأجازهم بأرفع ما كان يجبر به الوفود[2] .

ومن هذا يتبين لنا أن الإسلام دخل تلك البلاد فى وقت مبكر جد ، ربما بنفس القوة والزمان الذى دخل فيه المشرق الإسلامى ، ومن ثم فلا اعتبار للسبق الزمنى فى المسألة .

والجواب : أن الإسلام حين دخل هذه البلاد كان متعلقا بالأفراد والممارسات التى تتم بعيدا عن سلطان الكنيسة ، وجماعات اليهود ، وذلك لا يجعل صاحبه يتمكن من القيام بانتاج عقلى خالص يجعله يخوض غمار القضايا العويصة الشائعة ، إنما سيحصر همه فى هقيدته مترجما إياها فى الممارسات التى يقوم بها ، والعبادة والتكاليف الشرعية التى يحرص عليها تمكينا لدينة فى نفسه والمقرين منه .

---

(١) هو سيدنا بلال بن رباح من أهل الجنة قبل الإسلام ، وهو مؤذن رسول الله ﷺ م السابقين الأولين فى الإسلام ، وله مواقف كثيرة فى خدمة الإسلام أو المسلمين – راجع أسد الغابة ، الروض الأنف ، وسيرة النبى لابن هشام .

(٢) الإمام ابن القيم – زاد المعاد حـ٣ ص٤٧ وما بعدها – المطبعة المصرية .

أما بعد الفتح الإسلامى العام لها الذى ابتدأ عام ٩٢هـ ، فقد تغير الأمر ، وصار المسلم يمكنه أن يمارس شعائر دينه فى حرية تامة ، وحماية من الدولة المسلمة أيضا ، وذلك يتيح له الفرصة فى التأمل العقلى والتعبير عنه ، بجانب جعله الأفكار فى مطروح واحد يأخذ منها ما يراه مناسبا ، ومنها ما لا يجد الأسس تدعمه ، وهو الذى نعنيه بالسبق.

(٣) دخول مختلفى الثقافات بالمشرق فى الإسلام :

عرفنا أن أغلب من دخلوا فى الإسلام ، وترددوا على مهبط الوحى من بداية عهد البعثة النبوية الخاتمة المباركة كانوا من جزيرة العرب أو البلاد المجاورة لها ، كاليمن وفارس أو غيرها ، وأن هؤلاء المسلمين قد نقلوا المعارف الإسلامية التى قبسوها من النبى ﷺ ومارسوها معه إلى بلادهم لا باعتبارها ثقافة ، وإنما باعتبارها جزءا من نصوص الدين الإسلامى نفسه وأصوله القائمة[١]، ولذا كانوا يحافظون عليها فى الأداء والسلوك بجانب المفاهيم التى فرضت حولها .

فإذا عادوا إلى ديارهم ، وصاروا بيد يدى الأوطان التى جاءوا منها راحوا يمارسون ذلك النوع من المعارف الإسلامية بشكل واسع وعميق أيضا ، لا على أنه مجرد معارف عقلية ، وإنما باعتبار أنه مفاهيم دينية لا يمكن التفريط فيها ، أو التقليل من دور الاهتمام بها[٢] ، بل على العكس من ذلك كانون يعرضون النصوص الدينية والمفاهيم التى هى شروح لها معا ، فالنص هو الأصل والشرح هو المبين له ، ويجادلون خصومهم بكل منهما ، بحيث يكون النقل المنزل أولا ، ثم تأتى الأفهام التى حوله ثانيا لتأدية

(١) والفرق بين الثقافة والإيمان القلبى كبير – فالأول الثقافة معرفى ، أما الثانى وهو الإيمان فعمل قلبى .

(٢) الدكتور / محمد رجب – التفكير الإنسانى فى مراحله الأولى ص٧٥ .

الغرض ، وتوضيح الهدف ، وتقريب النقل المنزل من حيث المفهوم إلى العقل الذى ينتظرها ويبحث عنها .

ونظرا لكون هؤلاء من مختلفي الثقافات فانهم يتناولون معطياتهم السابقة بشيء من الحذر حتى لا تكون مخالفة للتعاليم الإسلامية التى يؤمنون بها ، فإذا تأكدوا أنها مخالفة للشرع الإسلامى أطاحوا بها بعيدا عن اعتقادهم وسلوكهم الدينى[1] ، أما إذا وجدوها موافقة لتعاليم الدين الإلهى[2] ، فانهم يستبقونها لا على أنها ثقافة ، وإنما باعتبار أنها قضايا لم يصدر الدين فيها حكما قطعيا بالرفض لها أو القبول .

فلما كثرت الثقافات فيما بينهم وتم ضبطها على النواحى الشرعية انطلقوا منها إلى الجانب الإبداعى بأوسع ما أمكنهم وبنفس السرعة والقوة فى الوقت الذى كان المغرب الإسلامى لم يعرف عن الإسلام الا ما عرفه الأفراد القلائل من رسول الله ﷺ ، أو يأتي به المرسلون من قبل رسول الله ﷺ ، الذين كانوا فى بادئ الأمر لا يجدون الاستجابة السريعة من حاكمى تلك البلاد ، لما هو معروف من ان الرسول ﷺ أرسل إلى كافة ملوك أهل الأرض يدعوهم للإسلام[3]، ويبين لهم ما فى الإسلام من عقيدة ، وشريعة وأخلاق ، بجانب الحب والعدل والرحمة ، وما فيه صلاح الدين ، ويمهد للسعادة فى الآخرة .

---

(١) الأستاذة / فوزية عبد اللطيف - دور المفكر المسلم فى فهم النص الدينى ص٩٣ .

(٢) الأستاذ / ذكى محمد مصطفى - نظرات فى الفكر الإسلامى ص١٩١ .

(٣) راجع الرسائل النبوية لأخى الأكبر وزميلى العزيز الأستاذ الدكتور / على يوسف إبراهيم السبكى بكلية أصول الدين ، وهو من قرية البهو فريك مركز أجا دقهلية أمد الله فى عمره وبارك فى أثره - رسالة ماجستير مخطوطة بكلية أصول الدين بالقاهرة - قسم الدعوة والثقافة الإسلامية .

إذن وجود أصحاب تلك الثقافات المختلفة كانوا من العوامل التى ساعدت على ظهور الحكمة أو الفلسفة الإسلامية فى الشرق الإسلامى قبل ظهورها فى المغرب الإسلامى بوقت طويل ، جدا يتناسب مع ذات المدة الزمانية ، والمسافة الكانية التى هى الفواصل القائمة بين المشرق والمغرب ، وهى أيضا التى جعلت الفكر الإبداعى الإسلامى فى المشرق يتقدم ويسبق غيره فى المغرب الإسلامى .

لا يقال أن دخول مختلفى الثقافات إلى البيئة الإسلامية قد أثر فى تكوين تلك الفلسفة الإبداعية ، وبالتالى فهى ليست فلسفة إسلامية بقدر ما هى فلسفة مأخوذة من فلسفات عديدة أو اقتباسات لثقافات مختلفة متباينة[١] ؟

لأنا نقول أن هؤلاء قد أفادوا أنفسهم بثقافاتهم تلك ، فلما دخلوا الإسلام تخلوا عن تلك الثقافات السابقة من الناحية الإيمانية ، بمعنى أنهم اعتمدوا فى قضايا العقيدة الإسلامية والأحكام الشرعية على النقل المنزل وحده ، أما المنهج والوسائل التى استعملوها للتعرف على فهم ذلك النقل المنزل فلا مانع من استخدامهم ثقافتهم السابقة كوسائل فيها بعض القبول حتى يصلوا للغايات الاسمى التى ينشدونها[٢] ، ويجدون فى طلبها ، أو يسعون لبلوغها ، والأمران مختلفان وليس أحدهما قائما على الأخر .

على أن المتأمل فى ثقافة هؤلاء قبل الإسلام يراها قد عنيت بالجانب المادى الذى تذبوا عليه ، وفى كل حال مارسوه أكثر من عنايتها بالجانب الروحى المتعلق

---

(١) هذه المزاعم الكذوب يرددها الكثيرون ممن يزعمون فى أنفسهم السبق ، وما هم الا نقلة غير واعين لما ينقلون .

(٢) وذلك الدور ليس معناه أنهم أثروا فى الفلسفة أو الحكمة الإسلامية بثقافاتهم وإنما معناه أنهم أثروا فى ثقافتهم بما تعرفوا عليه من الحكمة الإسلامية فاستفادوا منها معارف جديدة ، لم تكن لهم من قبل .

بالوحدانيات أو الذهنيات أو العقليات ، فلما دخلوا فى الإسلام واستظلوا بـه حولـوا اتجاهاتهم الثقافية إلى الجانب المأمون[١] ، وهو الجانب الإيمانى الذى تحرسه النصوص الدينية الإسلامية ذاتها ، وهو ما يعرف بالميتافيزيقا التأملية[٢] ، وهو أيضا الذى يوجه إلى الجانب المادى الذى يعرف بالميتافزيقا النقديـة أو الفلسـفة التجريبيـة علـى النحـو الذى عنى به أصحاب الفن ، وأبانوا عنه من كل ناحية .

(٤) النقل المنزل ـ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة[٣]

أجل نزل القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد النبى الخاتم الأمين ﷺ فاستقبله المسلمون بكل عناية واهتمام ، من حفظ وكتابه تلاوة مع الإجادة والإتقان ، وبجانبـهما جاء التأمل والتدبر ، وقد تمثلت تلك العناية عندهم فى العديد من المظاهر التى عرفـها المعنيون بهذه الجوانب[٤] ، ولا شك أن القرآن الكريم نزل على قلب النبـى محمـد ﷺ بواسـطة جـبريل الأمـين ، ونقلـه الصحابـة رضـوان الله عليـهم بـالتواتر[٥] عـن رسـول

---

(١) الدكتور – نصر الدين عبدالكريم الخطاب – أثر الإسلام فى الثقافة الأندلسية ص٢٥١ .

(٢) راجع التفكير الفلسفى الإسلامى للدكتور / سليمان دنيا ، وكتابنا المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية فى معرفة الفرق بينهما ، وبيان أن الإسلام يعنى بهما معا ، أما غيره فلا يعنى الا بجانب واحد منهما ، ويهمل الأخر .

(٣) عرضنا هذا الجانب فى كتابنا المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية أثناء حديثنا عن عوامل نشأة الحكمة الإسلامية .

(٤) العلامة جلال الدين السيوطى – الإتقان فى علوم القرآن – الجزء الأول ص١٨ .

(٥) الفرق بين التواتر والمتواتر ، أن التواتر هو السند أعنى الرواة الذين نقلوا المتن المنطوق به ، أما المتواتر فهو ذات المتن ، وهو اصطلاح علماء الأصول والمحدثين وأميل الى إضافة معنى أخر للتواتر والمتواتر فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، وهو أنه متواتر من حيث أن الله اخبر به جبريل الأمين الذى بلغه للنبى الكريم سيدنا محمد ﷺ على سبيل المراجعة له ، ثم يسمعه الرسول ﷺ وكذلك يسمعه الشيوخ من تلاميذهم على سبيل السفر المتواتر ، وبهذا المعنى فهو متواتر لأنه نزل من السماء وبهذا الشكل وتستقبله السماء بذات الشكل أيضا فتواتره قائم من السماء نزولا والى السماء رعاية وعناية ، ولا يوجد كتاب أخر سواه له ذات الخاصية.

الله ﷺ ، وظل ذلك الأمر فى التابعين ، وسيظل إلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، قال تعالى ﴿" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون "﴾[1] ،

وكان من جملة الصحابة أجلة من أهل المشرق الإسلامى الذين أنعموا النظر فى القرآن الكريم ، ورتعوا فى رياضه كما رشفوا من رحيقه ، ونقلوا ذلك كله إلى أصدقائهم وقرنائهم ، ومن آمن بالله رب العالمين مع سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين[2] ، وبات من المؤكد وجود بعض المفاهيم المستخرجة من تدبرهم لآيات القرآن الحكيم والحديث النبوى الكريم . وهو من البواكير الأولى للتفلسف العقلى الذى هو سمة من سمات المفكرين المسلمين .

وظل حالهم على ذلك لا ينفصلون عنه ، أو يتأخرون فى الأخذ به ، وكان ذلك كله فى المشرق الإسلامى فى الوقت الذى لم يكن أهل المغرب قد حققوا فيه تلك العناية إذ لم تكن لهم بها معرفة كافة ، لتأخر الفتح الإسلامى العام لبلاد الأندلس حتى عام ٩٢هـ ، وهى مدة طويلة فى عرف العقل متى أراد تلمس أسباب سبق الفكر الفلسفى الإسلامى فى المشرق لقرينه فى المغرب[3] الإسلامى بالأندلس وما حواليها .

وآيات القرآن الكريم تحدثت عن الميتافيزيقا التأملية فى كافة نواحيها من محاولات الاستدلال على إثبات وجود الذات الإلهية ومعرفة الصفات الإلهية إلى غيرها ، مما يتعلق بالأفعال الإلهية ، وعلاقة العالم الشاهد والغائب بالله تعالى ، بل وعلاقة الله تعالى بالعالم من حيث العناية والنظام ، مع الأحكام والإتقان إلى غير ذلك من الوجوه التى أفاض فيها أهل العرفان بالله تعالى ، وكان المسلمون عامة ، الحكماء

---

(١) سورة الحجر الآية .

(٢) الأستاذ / متولى مصطفى - دراسات فى الفكر الإسلامى ص٩٣ .

(٣) الدكتور - صابر حسن - دراسات فى الفكر الإسلامى بالمغرب ص٤٧ .

خاصة من هذا الفريق الذين يصح أن نطلق عليهم اسم أصحاب تلك العناية بالنقل المنزل من هذا الجانب .

كما أن وجود النصوص النقلية المنزلة القطعية فى ورودها وهى الاحتمالية فى دلالتها ، قد أفسح المجال لذلك النوع من التأمل العقلى الخالص التوجه نحو البحث العقلى الحر فى تناول القضايا التى جاءت على هذا الجانب من الحكمة العلمية[1] ، من أمثال تكوير الليل على النهار ، وتكوير النهار على الليل الوارد فى مثل قوله تعالى ﴿" يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى"﴾[2] .

على أنا قد أفضنا فى ذكر دور النقل المنزل فى نشأة الحكمة أو الفكر الفلسفى الإسلامى سواء ، ومن ناحية القرآن الكريم ، أو من ناحية السنة النبوية المطهرة الصحيحة باعتبارها نصوصا منزلة جاءت حولها الاجتهادات الكثيرة التى عنيت بها الأفهام العديدة التى قام بها المفكر المسلم على توالى الأزمان وكانت تمثل الركائز الثابتة والأساسية له[3] ، وهى فى ذات الوقت تعبر عن أصالته واستقلاله الفكرى وعدم تبعيته لفكر أخر غير إسلامى .

---

(١) يذهب الشيخ الرئيس ابن سينا إلى أن الحكمة فى الاسم تنقسم إلى :-

١- الحكمة العلمية ، وهى تتنوع إلى :- أ- الطبيعية ، ب- الرياضية ، جـ- الإلهية .

٢- الحكمة العملية ، وهى تتنوع إلى : أ- المدنية ، ب- المنزلية ، جـ- الخلقية .

(٢) سورة الزمر الآية ٥ .

(٣) راجع ما ذكرناه فى كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية حول تلك المسألة ، فهناك تفصيل طويل اقتضته الضرورة .

[ب] عوامل تأخر ظهور الحكمة أو الفلسفة الإسلامية في المغرب الإسلامي

الدارس لتاريخ الفلسفة الإسلامية فى المغرب الإسلامى يواجه العديد من الأسئلة التى تدور فى عقله تبحث عن إجابات محددة تقنع العقل المتأمل ذاته(١) ، الذى يقوم بدور المفكر الأصيل فى القضايا التى تطرح على الساحة الفكرية ، من تلك الأسئلة ، لماذا تأخر ظهور الفكر الفلسفى الإسلامى فى المغرب الإسلامى عنه فى المشرق الإسلامى طيلة تلك المدة الطويلة ؟ التى تجاوزت خمسة قرون تقريبا منذ بداية الهجرة المباركة حتى ظهور ابن باجه(٢) ، المولود فى نهايات القرن الخامس الهجرى .

واجلواب : أن هناك عوامل كثيرة كان ذلك التأخر من النتائج التى أدت اليه سواء تم ذلك على سبيل الاستقلال والانفراد ، أو على سبيل الاجتماع ، من تلك العوامل أو الأسباب على سبيل الإجمال ما يلى :-

١- تأخر الفتح الإسلامى العام للأندلس .

٢- وجود فلول من اليهود والمسيحيين خصوم الإسلام فى الأندلس ، ومحاربتهم وأهله ، مع وضع العراقيل فى طريق الإسلام والمسلمين والدعوة الإسلامية منهما كانت المبررات .

٣- طبيعة تلك البلاد من الناحية الأنثروبولوجية .

٤- التكوين الذهنى للعقلية التى كانت موجودة .

---

(١) الدكتورة / سامية محمود عبدالعاطى - الفلسفة الإسلامية فى المغرب ص١٣ .

(٢) ولد أبو بكر بن باجه فى نهاية القرن الخامس ٤٩٥هـ تقريبا ، ومات عام ٥٣٣هـ - راجع كتابنا : مذهب ابن باجه فى الأخلاق .

ونحن سنعرض لمحات موجزة عن كل واحدة منها محاولين تقديم ما نراه قائما فى أدلة مقبولة سابقا غيره ، وذلك على النحو التالي :-

أولا : تأخر الفتح الإسلامى لبلاد الأندلس ٩٢هـ/٩٥هـ .

من الثابت لدينا طبقا للمصادر التاريخية أن فتح الأندلس الإسلامى كان مما أخبر به الرسول ﷺ وهو من أخباره بالغيب المستقبلى لأنها فتحت بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيع الأعلي بفترة كبيرة اقتربت من العقود التسعة[1] ،

وذهب ابن حزم – رحمه الله – إلى أن فاتحى الأندلس من المسلمين هم ثانية الجماعتين اللتين أخبر عنهما رسول الله ﷺ فى حديثه الشريف عن فضل الجهاد فى البحر[2]، ونقله المؤرخون فى مصادرهم التاريخية أيضا .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يذهب إلى بيت خالته من الرضاعة ، أم حرام بنت ملحان ، زوج عبادة بن الصامت رضي الله عنه[3] ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأخذ به سنة من النوم ثم أستيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت ما يضحكك يا رسول الله ؟

---

(١) لأنه ﷺ أنتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٠هجرية ، والأندلس فتحت عام ٩٢هـ /٩٥هـ والفرق بينهما يزيد على ثمانين عاما ، فلذلك اعتبرناه مما اخبر به ﷺ على سبيل الغيب المستقبلى .

(٢) ذكر الشيخ أحمد بن محمد المغربى التلمسانى – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ٣ تحقيق الدكتور / إحسان عباس – ط دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م – ص١٥٦ وما بعدها ففيها ما دونه نقلا عن ابن حزم بتفصيل نرى ضرورة الرجوع اليه .

(٣) راجع ترجمته فى أسد الغابة ، فقد كان له دور كبير فى مطالع الدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة رحمه الله .

قال ﷺ : ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج البحر[١] ، ملوكا على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة ، قالت : قلت : يارسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم فدعا لها بما طلبته ومن رسول الله ﷺ عليه التمسته .

ثم وضع ﷺ رأسه فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك قالت : فقلت ما يضحكُ يا رسول الله ؟ قال ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله ، كما قال فى الأولى ، قالت فقلت يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم ، قال أنت من الأولين ، فركبت أم حرام بنت ملحان البحر مع معاوية ، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت[٢] .

يقول علامة الأندلس " ابن حزم " - رحمه الله - وهذا مما أوتيه رسول الله ﷺ من جوامع الكلم ، وفصل الخطاب ، وأمر بالبيان لما أوحى اليه ، فهو ﷺ قد أخبر فى الحديث الشريف المتصل بالسند العدل عن العدل أن طائفتين من أمته ﷺ سيركبون ثبج البحر غزاة واحدة بعد واحدة[٣] ، فسألته خالته من الرضاعة " أم حرام " أن يدعو ربه عز وجل حتى يجعلها منهم بحيث تنال شرف الجهاد فى سبيل الله عن هذا الطريق أيضا : فاخبرها ﷺ وخبره الحق بأنها ستكون من الأولين .

---

(١) الثبج هو وسط الشيء ، إذا تجمع وبرز ، والوقوف على أطرافه أو أحدهما ، ومنه بثج البحر - المعجم الوجيز باب الثاء ص٨٢ ، ويقال فى الحسيات كما يقال فى العقليات .

(٢) الحافظ المنذرى - الترغيب والترهيب جـ٢ ص٤٥/٤٦ ، ومختصر صحيح الإمام مسلم .

(٣) الشيخ أحمد بن محمد المقرى - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ٣ ص١٦١ - تحقيق الدكتور / إحسان عباس - دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٨٦م .

ثم يقول وهذا من أعلام نبوته ﷺ وهو من أخبـاره بالشيء قبل كونـه ، فوضـح البرهان على رسالته بذلك ، وقد تحققت فكانت ام حرام من الغزاة إلى قبرص ٢٨هـ في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ذى النورين ﷺ في الحملة التى قادها معاوية بن أبى سفيان ، وأنها قد خرت عن بغلتها هناك فتوفيت رحمها الله تعالى .

وكانت غزوتهم هذه مع معاوية هى أول غزوة ركب فيها المسلمون البحر ٢٨هـ ، فثبت أن الغزاة إلى قبرص هم الأولون الذين بشر بـهم الرسـول ﷺ ، وكـانت أم حـرام بنت ملحان هذه منهم كما أخبر بذلك النبى محمد ﷺ [١] وخبره كل صدق .

أما الغزاة الثانية : فكانت حين جهز المسلمون أنفسهم لفتح الأندلس بنـاء علـى الالتماسات التى قدمها أهلها من أهل الاسم وغيرهم للخليفة الأموى حتى يدخلـوا فـى الإسلام أمنا وحماية وينقذهم من المعاملات السيئة التى يقوم بها الجيش القوطى ضدهم الذى لا يفرق جنوده بين محارب أو مسـالم ، ولا بـين صحيح أو سـقيم ، وفـى نفس الوقت فان تنكيلهم بالمسلمين كان كبير ، وأن هذه الغـزوة كـانت بتكليـف لموسـى بـن نصير الذى أختار قواد الفرق العسكرية التى ستعمل معه ومنهم طارق بن زياد .

وقد نجح طارق بـن زيـاد فـى ذلـك وفتـح الله للمسـلمين بواكير بـلاد الأندلـس عام ٩٢هـ ثم ظلت الفتوحات لها مستمرة حتى تم فتح أغلبها فـى ٩٥هـ [٢] ، وبالتـالى فالأخبار بالغيب الذى ذكره سيدنا محمد ﷺ قد تحقق باعتبـاره مـن الأخبـار بـالغيب المستقبلى على ما هو معروف [٣] ، عنـه ﷺ وجـاء ذكـره فـى القـرآن الكريـم والحديـث الشريف أيضا .

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص١٦١ وما بعدها .

(٢) العلامة الأدريسى - نزهة المشتاق ص١٧٧ .

(٣) عرضنا ذلك فى كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى فارجع اليه هناك .

إذن الفتح الإسلامى العام للأندلس قد تأخر عنه فى المشرق الإسلامى ما يزيد على مائة عام أو تقريبا إذا أدخلنا فترة ما قبل الهجرة فى الحسبان ، حتى إذا استقرت الأحوال فى الأندلس وراح الناس يتعرفون العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ويتفهمون الأحكام الشرعية على سبيل التطبيق لها[1] ، وقد قر فى أعماقهم ذلك كله بعد الفتح الإسلامى العام ، فانه قد أستغرق وقتا ليس بالقليل ، ربما شمل القرن الثانى الهجرى كله ، وذلك ما جعل التفكير الفلسفى الإسلامى فى المغرب يتأخر عنه فى المشرق على هذه الناحية .

يقول أحد الدارسين :« أن الفتح الإسلامى للأندلس قد اتسم بالقوة والسرعة ، وهذا لا يرجع إلى تفوق المسلمين فى القوة العسكرية أو السلطة السياسية ، وإنما يرجع إلى انحياز المسلمين المخلصين إلى العقيدة الإسلامية التى سرعان ما يدخل الناس فى رحابها أفواجا ، تلك العقيدة التى يفتديها المسلمون بالنفس رخيصة لرفع شأنها ، كما استهانوا بالصعاب التى واجهتهم ... فى سبيل تلك العقيدة الصافية .

ومن ثم كانت التضحيات كثيرة والجهد كبيرا ، والدروب شاقة ، والمناخ شديدا ، والجو غريبا ، والأرض مصخرة عنيفة ، وكان مستوى العقيدة الإسلامية فى النفوس أعلى من ذلك وأكبر ، فأنساب الفاتحون فى شوطهم بهذه السرعة حتى بدت للآخرين كأنها نزهة ، ولكنها روحية من أجل إعلاء كلمة الله فى الأرض ، وهى مجلبة لراحة المؤمن ، وفرحته بنصر الله أن عاش وبجنته أن استشهد[2] .

---

(١) الدكتور / فوزى محمد عبد العزيز - أثر المسلمين فى الأندلس ص٧٥ .

(٢) الدكتور / عبدالمنعم حامد المرسى الصاوى - معالم الحضارة الإسلامية فى الأندلس ص٤٣ - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

إذن ليس من اليسير أن تبدأ العمليات العقلية الفكرية بالأندلس على سبيل الإبداع في مجال الميتافيزيقا التأملية والنقدية الا بعد نهاية القرن الثانى الهجرى على أكثر تقدير ، وذلك هو الذى يعطينا بيانا بالفارق فى السبق الزمانى للمشرق الإسلامى على نظيره فى المغرب الإسلامى بحوالى قرنين من الزمان فى هذا الاتجاه العقلى ، وذلك له أهمية كبرى من وجهة نظرنا للإجابة على ذلك السؤال المطروح .

ثانيا : وجود فلول من خصوم الإسلام بالأندلس

كثير من ساكني المشرق الذين كانوا يداعبون خيالاتهم فى الإمساك بزمام السلطة انتهى أمرهم فى اليأس منها بعد أن رأوا أنوار دين الإسلام تغطى كل الجنبات ، وأن الناس انطلقوا – فى المشرق – إلى الإسلام يؤمنون به ، ويعتقدون فيه ، ويتمسكون بكل تعاليمه ويطبقون أحكامه ، ويدافعون فى سبيل ذيوعه وانتشاره[1] ، ويبذلون كل جهودهم فى ذلك السبيل غير هيابين بشيء بلا قونه من جرّاء ذلك .

فى نفس الوقت فإن عظمة الإسلام فى نصوص دينه الموثقة ، وتعاليمه السمحة الميسرة ، وأحكامه القائمة على القواعد الثابتة التى يمكن تطبيقها على الناس جميعا باعتبار أنه دين الله تعالى للناس جميعا ، قد جعلت كل من ينظر اليها بعقل متجرد يتجه ناحية الاعتقاد فيها ، والالتزام بما تعرضه تلك العقيدة على المؤمنين بها فى الجانب الإيمانى الاعتقادى أولا ثم يأتى الجانب العلمى المعرفى .

حينئذ قرر الكثيرون من دعاة المسيحية واليهودية والوثنيون عموما الهرب الفردى أولا ثم الجماعى ثانيا من الجزيرة العربية التى استنارت بالوحى والمعرفة ، ولم تعد

---

(١) الدكتور / محمد عبداللطيف السيد – قوة المسلمين من دينهم ص٧١ .

قابلة لتلك الأفكار التى يرددها هؤلاء الوثنيون[١] ، والاتجاه إلى بلاد الأندلس البعيدة حتى يقيموا هناك إذا كانت محتلة بالقوط والوثنيين ، ويعدوا أنفسهم للمكاسب التى تطلعوا اليها ، ولم تتحقق لهم فى المشرق ، ظانين أن الإسلام سيتوقف عند حدود جزيرة العرب ، وأنه إذا امتد فلن يزيد عن البلاد المحيطة به[٢] ، ولو تم فان ذلك سوف يستغرق فترة زمانية طويلة قد تستنفذ طاقات وأعمار أجيالا ، وذلك أمر – من وجهة نظرهم – بعيد المنال .

فلما أقاموا بالأندلس حاولوا تثبيت أنفسهم فيه من خلال الطرق والأساليب التى قد أجادوها ، وإيجاد أوضاع ثابتة ومراكز قائمة لهم فى نفوس أهل تلك البلاد الذين كان أغلبهم من القبائل المختلفة النازحة إلى شبه جزيرة الايبيرين التى سميت باسمهم ، وأطلق عليها الفينيقيون اسم أسبانيا[٣] ، بجانب جماعات الوندال والسويف الذين اسسوا مملكة لهم على نهر الوادى الكبير حتى سميت فنداليسيا وقد أخذت منها كلمة الأندلس فيما بعد .

وكذلك كان فيها العديد من الجماعات القوطية الذين تملكوا تلك البلاد على سبيل الاختلال لها فى القرن الخامس الميلادى[٤] ، وظلوا بها حتى فتحها المسلمون عام ٩٢هـ الموافق ٧١١م ، بعد أن استغاث أهل تلك البلاد بالمسلمين حتى ينقذوهم من

---

(١) الأستاذ / عبدالحى حليل المقولى – دراسات فى الملل الوثنية ص١٤٧ ط ١٩٥٣م .
(٢) الشيخ / محمد نصر الدين – أثر المجاهدين فى سقوط الأندلس ص١٥٣ .
(٣) الأستاذ / بركات محمد على – الأندلس قبل الإسلام ص١٢١ ط الأولى ١٩٥١م .
(٤) الشيخ / أحمد بن محمد المقرى التلمسانى – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ١ ص١٣٤ وما بعدها – تحقيق الدكتور/ إحسان عباس ط دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٨٦م .

التصرفات القاسية التي يمارسها المحتلون ، وكانوا يضغطون على المسلمين ما أمكنهم اليه من سبيل .

إذن كان المجتمع الأندلسى يتكون من بقايا الوندال الذين هم إحدى القبائل الجرمانية المتبربرة الذين مكثوا فى الأندلس بعد دخول القوط اليها وطردهم القيادة السياسية لقبائل الوندال ، وكذلك بقايا اليونان والفينيقيين ، وبقايا قبائل السويف الذين انتشروا فى مدن الأندلس الرئيسية[١] ، وكذلك بدوه وحضره من قرطبه وإشبيلية وغرناطة وطليطلة ومالقة وغيرها من بلاد الأندلس بجانب غيرهم ممن سكن معهم نفس البلاد .

فلما نزح اليها فلول أتباع المسيحية واليهودية والوثنية وجدوا الأرض هناك صالحة لإنبات بذورهم . إذ لم تكن تلك الجماعات الموجودة تمثل مجتمعا معينا ثابتا متكاملا له قواعده وقوانينه بقدر ما هى بقايا مجتمعات فيها الكثير من التخلف والأكثر من الأفكار التى لا تقوم على أسس مقبولة[٢] ، أو قواعد ثابتة أو تشترك فى أهداف تكون بمثابة الآمال فى المستقبل .

❁ **ونظرا لطبيعة اليهودية فى تحريك الطوائف على بعضها ، وبذر الفتنة بين أجزاء الجسم الواحد التى حتى يحققوا فيها الكثير من النجاحات ، فقد مارسوا تلك الطبيعة على أوسع نطاق مستغلين ما يتمتعون به من خبث ومكر بجانب الدهاء وبالتالي فقد أنشغل الناس بتلك الصراعات التى أفرزت نظاما طبقيا يتكون من :-**

[١] طبقة النبلاء : وهم الطبقة الحاكمة التى كانت أعمدتها من القوط المستعمرين ، وهم الذين يتمتعون بكافة الامتيازات ، فهم طبقة حاكمة ، وهم الأسرة المالكة بلغة

---

(١) الدكتور / على أحمد عبداللطيف – المجتمع الأندلسى قبل الإسلام ص١٨٥ – الطبعة الأولى ١٩٥٧م .

(٢) الدكتور / محمد السيد عبدالكريم – المجتمع المختلط فى دائرة الثقافة ص١٢١ .

العصر ، وهم الذين بيدهم كافة الأمور فى كل ما يتعلق بأسبانيا على وجه العموم ، فاندفع بقايا قبائل السويف إلى سكنى الشمال بينما انطلق الوندال إلى الجنوب[١] ، هربا من قسوة طبقة النبلاء التى ظلت متماسكة فترة ، ثم راحت تتهاوى فى نهايات القرن السادس والسابع الميلادى ، فانقضى أمرها تحت أقدام الفاتحين المسلمين الذين ابتدؤا الفتح الإسلامى ٧١١/٧١٤م الموافق ٩٢/٩٥هـ .

[٢] **طبقة رجال الكنيسة** : وهم الذين فرضوا أنفسهم على سكان تلك البلاد على الناحية الدينية ، وكانت لهم بعض المكانة فى نفوس كبار رجال هذه القبائل الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة مخلص لهم ومنقذ من مساوئ الطبقة الحاكمة ، غير أن ذلك الأمر لم يكن على وجه دقيق أوفى محله ، إذ أن رجال الكنيسة كانوا يخدعون هؤلاء الناس البكاء ، فيظهرون لهم غير ما يبطنون ، حتى أنهم كانوا يستمتعون بمقاسمة رجال طبقة النبلاء حكم البلاد وخيراتها[٢] ، وكان الناس ينظرون إليهم على أنهم أهل تقوى وزهد بينما هم على العكس من ذلك تماما مما كان له اثره السلبى على مجتمع الأندلس كله .

[٣] **طبقة التجار والزراع والملاك** : وهم الذين تنحصر ملكياتهم فى قطع صغيرة أقل بكثير من طبقة النبلاء ، وهم فى ذات الوقت يتحملون الضرائب المختلفة ، ويقومون بالأعمال التى يوكلون بها من قبل طبقة النبلاء أو رجال الكنيسة ، وهم فى الأغلب الأعم كانوا غير راضين ، لا عن السلطة الحاكمة التى يمثل أفرادها نوعا من الاستقلال الدائم لخيرات البلاد وجهود أهلها ، ولا عن رجال الكنيسة

---

(١) الدكتور / حسين مؤنس - فجر الأندلس - جـ٢ ص١٥ وما بعدها - ط القاهرة ١٩٥٩م .

(٢) الدكتور / محمد بحر عبد المجيد -اليهود فى الأندلس ص١٣٧ .

الذين يظهرون خلاف ما يبطنون[١] ، أو يتصرفون على غير ما للناس يقولون ، من غير أن يكون لديهم ضمير يقظ حى يجعلهم يعيدون النظر فى المواقف التى صدرت منهم .

[٤] **طبقة عبيد الأرض الذين يتبعون مالك ذات الأرض** . فإذا باع المالك الأرض انتقلت ملكيتهم أيضا إلى المشترى الجديد كأنهم جزء من ذات الأرض ، أو أن الأرض أمهم وهم أولادها فإذا بيعت الأم تبعها أبناؤها ، وكانوا يشعرون بشيء من الضجر ، والكثير من الغبن للحقوق مع التكليف بالأعمال المرهقة ، وتحمل التصرفات الغير سوية من ملاك تلك الأرض سواء منهم القدامى أو المحدثون .

ولا شك أنهم كانوا يتطلعون إلى منقذ يأخذ بهم إلى الحرية والتعبير عن الذات[٢] ، فلما وطأت أقدام الفاتحين المسلمين بلاد الأندلس كان هؤلاء أول من تصرفوا بشكل تلقائى فى الترحيب بإولئك الفاتحين المسلمين الذين تميزوا بالتقوى والصلاح ، وإعادة الحقوق لأصحابها على وجه الإتقان والإجادة ، من غير أن يعلنوا عن ذلك ، ثم يصنعوا غيره .

[٥] **طبقة العبيد المنتقلين فاقدى الأصول** ، وهم الذين يباعون فى الأسواق ، ويتم التبادل معهم فى المسألة كأنهم سلع مرنة أو غير مرنة[٣] ، وكانوا وأولادهم ونساؤهم جزء من المتاع يستعمله صاحبه متى شاء ، وفى أى وقت يشاء ، بل كانه

---

(١) الدكتورة / سناء عبدالحميد - تنازع السلطات فى أسبانيا قبل الإسلام ص١٩٠ .

(٢) الدكتور / عبدالحليم صالح - علاقة العبيد بالملوك فى أسبانيا ص٧٣ .

(٣) اصطلاح لدى علماء الاقتصاد يراد به القابل للحركة السريعة ، والذى يتم التعامل به من خلال الحركة البطيئة ، أو التى تفسد بالتخزين الطويل ، والتى لا تفسد به - راجع نظرية القيمة .

حيوان يذبحه لمن أراد ولا عبرة لآدميته ، ولا احترام لشيء من إنسانيته ، لا هو ولا زوجه ، ولا أولاده[1] ، حتى أن المالك لهم قد يستغنى بالبيع عن الأم ويستبقى الطفل الصغير يصرخ أمام والده من الجوع أو فقدانه الأم ، فإذا ضاق المالك به ربما ألقاه إلى الحيوانات المفترسة أن لم يعرضه للبيع أو يجد من يكفله حتى يهدأ ، أو يتوقف صراخه[2] .

[٦] طبقة اليهود : وهم الذين كان يؤيدون الملك حماية لأنفسهم من أذاه وبحثا عن من مراكز لهم داخل المجتمع الذى يقيمون فيه فإذا سقط ذلك أو شعروا بقوتهم حاولوا الوقوف فى وجهه ، وإذا ضعفوا حاولوا إظهار الولاء له ، وفى نفس الوقت فإنهم يؤلبون الناس عليه ، فإذا شعر الملك بهم ضيق عليهم أو اضطهدهم حتى يعودوا إلى الوفاق معه والقيام على خدمته ، وذلك شأن اليهود على الدوام ، كلما عاشوا فى دولة من الدول أو أمة من الأمم ، فانهم يعتقدون أن الغاية تبرر الوسيلة . مهما كانت الغاية رخيصة ، ومهما كانت الوسيلة أيضا رخيصة .

إذن تلاقت رغبات فلول اليهود وأتباع السلطان الكنسى على ضرورة اقتسام السلطة وهز عرش الملك ، فلما فشلت الرغبات فى الانطلاق السريع ، وبات من المؤكد الأخر ذلك ، انطلق اليهود إلى طبقة عبيد الأرض والملاك والزراع والتجار يعبئون شعورهم بالعداء للسلطة الحاكمة ، ورجال الدين المسيحى ، بل وصل الأمر باليهود إلى القيام بدور المنفذ لكل الجرائم التى تمت[3] ، إذ لم يعد مجرد التخطيط لها كافيا عندهم ، وهم الذين يتعجلون القفز إلى السلطة ، وامتلاك زمام الأمور على وجه السرعة

---

(١) الأستاذ / عبد البديع محمد سلطان - الحرية الإسلامية ص٥١ .

(٢) الأستاذ / فاضل محمد سليمان - الإسلام والرقا ص٧٥ .

(٣) الدكتور / محمد بحر عبدالمجيد - اليهود فى الأندلس ص١٣٩ .

بحيث يمكنهم القيام بما يشاؤن ، وهو الاتجاه الذى يمثله اللوبى الصهيونى فى العصر الحديث .

فى نفس الوقت كان الرهبان وأتباع الكنيسة يقومون بنفس الدور اليهودى فى تعبئة الشعور العدوانى وتوسيع امتداده إلى أقصى حد[١] ، فبات الناس كل فى شر مستطير ، وتمكن ذلك من النفوس إلى الحد الذى جعلهم يورثونه - كنوع من العداء - لأبنائهم وذويهم ، ويتواصون به كقواعد ثابتة ، وبمرور الوقت صار المجتمع الأندلسى قبل الإسلام كله يتكون من عناصر سكانية مختلفة[٢] ، لا تربط بينها روابط مستقرة أو قواسم متبادلة ، وهو ما جعل المسلمين الأوائل فيه يعيشون ظروفا قاسية[٣] ، بجانب كونهم مجموعات قليلة قد لا يستطيع القيام بالواجبات الشرعية الإسلامية فى نوع من الحرية ،

فلما دخل الفاتحون المسلمون الأندلس فى الفتح العام لم تكن الأرض مهيأة ولا النفوس الغير إسلامية مستعدة لأن تفرغ محتوياتها العدوانية حتى تستعد لاستقبال قضايا ميتافيزيقية كالتى جاء بها النقل المنزل ، وحتى يبلغ تلك الغاية فكان من الضرورى استنفاذ بعض الوقت الذى طال لدى البعض أو قصر لدى البعض الأخر ،

---

(١) الأستاذ / عبدالله عنان - دولة الإسلام فى الأندلس - القسم الثانى ص٦٨٢ ، يقول وقد استمر ذلك النشاط العدوانى من النصارى المعاهدين عصورا ، حتى بعد الفتح الإسلامى للأندلس ، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه فى بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤتمرات ويعتقدون من الصلات المريبة مع نصارى الشمال الأسبان .

(٢) العلامة ابن عذارى المراكشى - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ٢ ص٥ - تحقيق : ليفى بروفنسال - ط دار الثقافة بيروت

(٣) الدكتورة / فاطمة محمد رضوان - المسلمون بالأندلس قبل الفتح الإسلامى ص١٩٧ .

حتى ظهر فلاسفة ومفكرون على شكل تنظيمى فيه الإبداع ، بالمعنى القائم فى الناحية الفنية ، ولا شك أن ذلك كله يعتبر من العوامل التى أدت إلى تأخر ظهور الفكر الفلسفى الإسلامى فى المغرب الإسلامى عنه فى المشرق الإسلامى ، وأن ظهوره فيما بعد بالمغرب الإسلامى كان قويا وسريعا بجانب ما تميز به من فاعلية مؤثرة .

ثالثا : طبيعة تلك البلاد

من المعروف أن طبيعة بلاد الأندلس من الناحية الجغرافية فيها الكثير من ألوان السحر والجمال وبجانب ذلك فهم أهل صناعة وزراعة ، وتجارة ورعى ، وذلك كله يجعل أفراد المجتمع ينشغلون بأعمالهم التى يكتسبون منها لقمة العيش ، أو يعملونها حتى يتزايد نشاطهم وتكثر الثروات فيما بينهم[١] ، وقوم كهؤلاء لابد أن يكون اهتمامهم قائما على الضروريات الحياتية ، ومن ثم فان الفكر العقلى عندهم لن يكون مبكرا فى مجال البحث الميتافيزيقى ، إذ الدوافع عندهم اليه لم تكن بالقدر الذى يتساوى مع حرصهم على ممارسة تلك الصناعات[٢] ، وكان لذلك أهمية كبرى فى تأخر ظهور الفكر الفلسفى المنظم داخل المغرب الإسلامى عن نظيره فى المشرق الإسلامى .

على أن هذه البلاد قد تنوعت أصولها البشرية وعقائدها وثقافاتها ، وكذلك ما يتعلق بباقى العناصر المكونة لطبيعة تلك البلاد سواء من الناحية الجغرافية أو من الناحية الأنثروبولوجية[٣] ، حتى يمكن القول بأنها كانت أشبه بالبوتقة التى انصهرت فيها عقليات شتى وثقافات متباينة[٤] ، وكانت بحاجة إلى الدين الإسلامى حتى يعيد

---

(١) الدكتور / لطفى عبد البديع - الإسلام فى أسبانيا ص١٧ .

(٢) الأستاذ / نبوى محمد عبدالواحد - الأندلس قبل الإسلام ص١٣٧ .

(٣) الدكتور / محمد بحر عبدالمجيد - اليهود فى الأندلس ص٢٢ وما بعدها .

(٤) الدكتور / حسين مؤنس - فجر الأندلس ص٤٣٠ وما بعدها .

تنظيمها أو يترتب أصولها ، ويهذب شواردها ، بحيث ثمارها وهـو الـذى حـدث فـى بلاد الأندلس بعد دخول الإسلام لها .

ولاشك أن مجتمعا تركيبة كهذه فلابد أن تقع به تجاوزات سواء فى التأخر عـن النهوض ببعض الأعباء أو الوقوف عندها كلـها ، حتى تظـهر أثـار النصـوص الدينيـة الإسلامية فيه ، وتقوم نتائجها به مقام المقدمات الضرورية ، وحينئذ تبـدوا فـى الأفـق ملامح هذا الفكر الإسلامى المتميز كنتائج له بحيث تكون بمثابة القواعد الأولى التى يتم البناء الفكرى عليها ، وذلك من أسباب أو عوامل تأخر الحكمة الإسلامية فـى المغـرب الإسلامى عن مثيلتها فى المشرق الإسلامى على ما سلف القول به .

رابعا : التكوين الذهنى للعقليات الموجودة

عرفنا أن سكان بلاد الأندلس قبل الإسلام كان أغلبهم من أصول مختلفة وأجناس متباينة ، وان هذه الاخلاط اشتغل أصحاب التميز العقلـى فيـها بكيفيـة التخلـص مـن الحكم القائم ، أو استغلال الفرد الموجود على النحو الذى يروق[1] ، وأن ذلـك أنعكـس على الحياة فى كافة مظاهرها العقلية والثقافيـة والاجتماعيـة بـل الاقتصاديـة ، وكـان الصراع القائم أحد صور ذلك التأخر عن البحث فى القضايـا الميتافيزيقيـة ، أو تناولهـا بالشكل الواسع ، وظل أمرهم على ذلك الحال . حتى دخلها الإسلام فى الفتح العام .

وقوم حالهم كهذا فان التكويـن الذهنـى للفرد عندهـم لـن يكـون الا فـى حـدود متطلباتـه الذاتيـة ، واحتياجاتـهم المعيشـية ، أو بمعنـى أخـر فانـه سـيجعل اهتمامـه منحصرا فى وسائل تلبية غرائزه الجسدية وإشباعها ، أو تأمين ما يحقق له ذلك بشكل

---

(١) الدكتورة / وفاء محمد صادق – أسبانيا قبل الفتح الإسلامى ص١٣١ .

كبير[1] ، وحينئذ فلن يرفع رأسه ويدير عقله الا فى تلك الجوانب بذاتها واعتبارها الغرض الأول والهدف الأسمى .

فلما دخل الإسلام تلك البلاد بشكل عام فى ٩٢هـ ، واستقرت قواعد الفاتحين كان غرضهم الأول عرض عقيدتهم الدينية نظريا من خلال وسائل التبليغ التى جاءت معهم لذلك الغرض[2] ، وعلميا من خلال الممارسة للشعائر الإسلامية ، والقيام بالأركان الشرعية ، ومحاولة تحريك هؤلاء اليها بالطرق التى تعين على بلوغ هذه الغاية ، وهم فى سبيل ذلك يبذلون كل ما أمكنهم لا يبالون بشيء غير شرع الله .

وقد أستغرق ذلك فترة ليست قليلة لما فى طبيعة هؤلاء من تمسك بمعارفهم الذاتية واعتبارها عناصر قومية لا يمكن أن تذوب فى غيرها أو يذوب ذلك الغير فيها ، ونظرتهم إلى أية ثقافة أخرى بمنظار العدوان والغزو الفكرى[3]، وهم الذين كانوا يرفضونه إلى أبعد حد ، نظرا لما فى عناصرهم وأصولهم من تباين واضح ، وصراع داخلى عنيف لم يكن من اليسير التخلص منه بسرعة شديدة فى الواقع الفعلى .

من ثم فان المحاولات التى قام بها مفكروا الإسلام فى المشرق لإحياء وإيجاد فكر ميتافيزيقى فى المغرب الإسلامى لم تنجح بالسرعة والقوة التى تم بها الفتح الإسلامى العام نفسه ، وهو ما يؤكد لنا أن الغزو العسكرى يمكن أن يتم بسرعة وينتهى أيضا بسرعة ، أما الغزو الثقافى فانه يتأخر كثيرا مهما حاول الغازى أن يجبر المغزوين على

---

(١) الأستاذ محمود عبداللطيف الضبع - متطلبات الفرد فى ظل الصراعات ص٢٢٩.

(٢) إذن كان المسلمون فى كل فتوحاتهم ليسوا محاربين ، وانما صحابة أو تابعين للقرآن الكريم حافظين ، وللسنة النبوية المطهرة عارفين ، وكان فيهم أهل الاختصاص الذين يصحبون الفاتحين حتى يكونوا بمثابة المراجع العلمية والقضاة فى المسائل التى تعرض لهم .

(٣) الأستاذ / عبدالوارث محمد فضل - دراسات فى تاريخ الأندلس ص١٣١ .

قبوله[1] ، أنه يستطيع تغير بعض سلوكياتهم الجسدية فى مظاهر بعينها ، ولكنه لا يستطيع بنفس تلك السرعة أن يغير من اتجاهاتهم الثقافية وتكويناتهم الذهنية القائمة على معارف فيها شيء من الثبات والكثير من الأرث القائم على التقليد فى بعض الأحيان .

بيد أن المسلمين لم يكونوا غازين ، وإنما كانوا فاتحين ، كما لم يكونوا مستعمرين ، وإنما كانوا معمرين[2] ، وأنهم لم يستخدموا السلاح الا دفاعا عن عناصر الإبلاغ التى كانوا يرسلونها للعلم والمعرفة وإبلاغ شريعة الله تعالى ، ثم تتعرض هذه الأفراد العزل للعدوان عليها[3] ، إعاقتها عن عملها .

وفى نفس الوقت فان سلاحهم لم يستخدم الا فى حالة الضرورة القصوى من الدفاع أو التأمين ، وفى حدود عدم التعرض لأصحاب الأعذار ، وهى منصوص عليها فى النقل المنزل[4] ، ولا الموجودات الطبيعية من نبات وماء وغير ذلك مما تقوم عليه

---

(١) أ.ب كاو " العقل ملكية خاصة ص١١ ترجمة حسن توفيق .

(٢) الغازى والمستعمر يحمل السلاح ، وغرضه امتلاك ثروات الآخرين ، فان منع من تلك الغاية لجأ إلى التشتيت وربما التصفية لذلك الشعب نفسه كما فعل استالين الشيوعى مع شعب الشيشان المسلم فى القرن العشرين ، وفعل يلتسين وخلفه اللعين بوتين لعنهم الله فى نهاية القرن العشرين ومطالع الحادى عشر مع نفس الشعب المسلم .

أما الفاتح المسلم فانه يعرض عقيدة ويعمر البلاد ، ويسرع إلى تقديم الخدمات فهو ينفق على تلك البلاد لا يأخذ منها ، هو معمر وليس مدمرا ، وذلك حال المسلمين فى كل البلاد التى فتحوها ، ومن ثم فهم فاتحون لا مستعمرون .

(٣) الأستاذ محمد توفيق - الجهاد فى الإسلام ص٩٥ .

(٤) الشيخ محمد إسماعيل سالم - موقف المستشرقين من الجهاد الإسلامى ص١٣٩ .

مظاهر الحياة[١] ، بشكل أو بآخر ، لأن المحافظة عليها شأن المسلم طبقا لما جاء في نصوص دين الإسلام نفسه ، والخلافة التي جعلها الله في الإنسان ، حتى يعمر الأرض .

ومن المؤكد لدينا أن وجود الصراعات العرقية والطبيعية بجانب النزعة الشعوبية ، أدى ذلك كله إلى تخلخل البناء الاجتماعي في الأندلس قبل الإسلام مما ترتب عليه وجود فوارق من الثقافات ، وتباين في الاتجاهات وأثر ذلك كله في المعارف الإنسانية ، فأدى إلى تشتت في تناول المعارف ، وكان له تأثيره المباشر على التكوينات الذهنية[٢] ، مما نراه أحد العوامل التي أدت إلى تأخر ظهور الفكر الفلسفي في المغرب الإسلامي عنه في المشرق الإسلامي .

خامسا : تأخر هجرة مسلمي أهل المشرق إلى المغرب والأندلس الإسلامي

من المعروف أن الله فتح للمسلمين بلاد الأندلس ٩٢هـ / ٩٥هـ حتى استقر أمرها للمسلمين تماما من الناحية العسكرية ، لكن قد تأخرت الناحية السياسية في الاستقرار ، وهي التي تلي العسكرية وكان تأخرها من الناحية التنظيمية فقط ، حتى تم اختيار الوالي الشرعي المناسب الذي سيكون ممثلا للخليفة المسلم في هذه البلاد[٣] من الناحية السياسية والعسكرية وغيرها من النواحي الضرورية للمحافظة على ذلك الكيان الإسلامي الجديد .

---

(١) الأستاذ / محمد توفيق – الجهاد في الإسلام ص٩٩ .

(٢) الدكتور / عبدالحميد العبادي – المجمل في تاريخ الأندلس ص٦٢ وما بعدها .

(٣) كان الخلفاء المسلمون الراشدون يعينون على الأمصار الإسلامية واليا على كل مصر يقيم في الناس شرع الله تعالى ، ويحافظ على أنماط الحياة كلها ، أما من بعدهم فكانوا يعيشون أمراء على تلك البلاد .

كما أن الأمير الذى يمثل الخليفة كان يعلم تماماً أنه يتولى أمور قوم الإسلام جديد على أغلبهم[١] ، ومن كان ذلك شأنه فمن المناسب الأخذ بيديه إلى المعارف التى تناسب ظرفه الراهن ، وهو الذى صنعه مهم الفاتحون المسلمون فيما بعد ، وظل الوالى المسلم ينهض بتلك البلاد طالما كان قائما على شرع الله ، أما حين تخلى عن شرع الله فقد ضاعت كلها .

وحيث عرفنا أن الأندلس قبل الإسلام كانت مجرد قبائل بربرية ليس لها فى مجال الحضارة أدنى أهمية ، ولا من مظاهر التقدم أقل نصيب ، وأن الاحتلال القوطى لها كان من أكبر الحوائل بين أهلها ، وأن ينالوا من العلم ما يمكن أن يحرك فى أنفسهم كوامن النزوع إلى الحرية ، أو يفجر فى قلوبهم مشاعر الثورة ، فإن القوطيين قد وقفوا فى وجه كل المحاولات التى تتجه إلى تغير شيء من تلك الأوضاع القائمة التى فرضوها على الناس فرضا[٢] ، ولم يتمكن الناس من رفع أيديهم عن تلك البلاد التى ظلت تحت سطوتهم حتى جاء الإسلام فأبعدهم عنها ، وخفف من قيودهم عليها .

كما عرفنا أيضا أن هؤلاء البربر لم يكن لهم قبل الإسلام من هم الا أن يبذلوا طاقاتهم الدائبة فى استخراج خيرات الأرض ، وليس لهم من غاية الا أن يحصلوا من ثمرات كدهم على القوت الضرورى الذى يحفظ عليهم الحياة ، ويمكنهم من استئناف

---

(١) لما ذكرنا من أن أهل تجيب قد أسلموا ، وجاء وفدهم إلى رسول الله ﷺ بصدقاتهم وزكواتهم التى فرضها الله تعالى عليهم ، وأن رسول الله ﷺ قد أمر بلالا ﷺ أن يجزهم بأفضل مما تجازيه الوفود ، فالإسلام فى تلك البلاد موجود منذ بدء الدعوة الإسلامية فى أفراد قلائل ، وكان الفتح العام ٩٢/٩٥هـ - راجع للإمام ابن القيم زاد المعاد فى هدى خير العباد جـ٣ ص٤٦ ، وما بعدها ، ففيها قصة وفد تجيب الذى جاء الرسول ﷺ.

(٢) الدكتور محمد رمضان عبدالكريم - الأندلس قبل الإسلام ص٩٣ - الطبعة الأولى ١٩٦١م .

كدحهم الدائب وعنائهم الطويل[١] ، ويبعد عنهم شبح الخوف من السلطة القائمة التى تعتبر أوامرها قواعد آمرة من يقصر فيها يلقى من العذاب ما يتناسب مع تقصيره .

أضف إلى ما سبق أن الأندلس بعد الفتح الإسلامى العام ٩٥/٩٢هـ ، قد تغير أمرها ، فحل الاستقرار فيها محل الفوضى ، والحكومة المركزية العادلة محل نظام الإقطاع ، وقسمت البلاد إداريا ، وتم تنظيم الجيش[٢] ، على الطريقة الإسلامية التى كانت قائمة فى المشرق الإسلامى ، ومعمول بها فى بلدان الخلافة الإسلامية كلها أبان تلك الفترة[٣] ، التى امتدت حتى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى والتى انتهت بسقوط الدولة الأموية فى المشرق الإسلامى ، وبعدها استطاع عبدالرحمن الثالث الوصول إلى المغرب والأندلس والتغلب على القوطيين ، وإقامة الإمارة الأموية فى الأندلس ٤٠٠/١٣٨هـ .

---

(١) الدكتور رفقى زاهر – فيلسوف الأندلس ابن رشد جـ٣ سنة ١٩٧٤م ، وهو أحد شيوخى الأجلاء ، ولد فى قرية البوها التابعة لميت غمر دقهلية ، وتخرج فى الأزهر الشريف ، ونال درجتى الماجستير والدكتوراة ، وعمل بجامعة الأزهر أستاذا لنا ، ثم أعير للمملكة العربية السعودية أستاذا بجامعاتها ، وظل بها من عام ١٩٧٨م حتى عام ١٩٩٧م ، ثم عاد لدقادوس التى كان يقيم بها نظرا لظروفه الصحية ، ثم أنتقل لرحمة الله تعالى عام ١٩٩٨م ، وكان رحمه الله عليه يجيد اللغة الإنجليزية والفرنسية بجانب العربية ، كما يجيد الآلة الكاتبة والموسيقى وغيرها ، وكان أديبا رائق العبارة كما كان فيلسوفا عميق ا لفكر ، وفقيها متمكنا ، ومع أنه كان محروما من نعمة البصر الا أن نعمة البصيرة كانت عوضا له ، ومع ذلك كله فقد كان خصومه ينسبون اليه زورا ما لا تصح نسبته إلى مسلم ، رحمه الله وجعل الجنة مثواه ، أما خصومه فحسابهم عند الله – راجع لزوجه الفاضل كتابها " عالم فى عالم " – الجزء الأول والثانى ، وهى نعم الزوجة ، ومع أنه لم يرزق الذرية إلا أن الله تعالى عوضه عنها بالرضا والتسليم لما قضى به الله .

(٢) العلامة عبدالرحمن بن خلدون – العبر – جـ٤ ص٢٥٥ وما بعدها ، ففيها تصوير دقيق لما تم فى الأندلس أبان تلك الفترة مع بواكير الفتح الإسلامى .

(٣) العلامة ابن عذارى المراكشى – البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ٢ ص٢٥ .

في تلك الأثناء كان الفاتحون مقيمين في رباط مستمر ، فهم يبذلون جهودا كبيرة لدعوة الناس للحق حتى يعرفوا العقيدة الإسلامية ، ويطبقوا الأحكام الشرعية ، ويأخذوا بأيديهم إلى الإسلام الدين الحنيف بوجه عام ، وذلك يحتاج رجالا يقومون بكل أعبائه ، وبخاصة أن أولئك المجاهدين كانت لديهم رغبة شديدة ، وعاطفة وثابة لنشر دين الإسلام الحنيف الذى هو أغلى من نفوسنا جميعا[1] ، ومن كان ذلك حالهم فلابد أنهم سوف يتخففون من أحمالهم ، لا يعرفون مللا ولا كملا ، وسوف لا ينقلون أسرهم معهم اليها مبكرا ، حتى تستقر الأمور ويأمنون عليها ، ويكون لوجودها أمر مهم في البلاد المفتوحة ، ومن ثم فقد ظلت الأسر المسلمة كما هى فى أماكنها من بلاد المسلمين ، فمن أين يحدث الاختلاط أو تلاقى الأفكار بين المشرق والمغرب الإسلامى ؟

حتى إذا استتبت الأمور فى الأندلس لأهل الإسلام ، بدأ هؤلاء الجند الفاتحون ينقلون بعض أسرهم إلى المغرب الإسلامى طبقا للاحتياجات الضرورية ، وبعد أن حدث تزاوج[2] ، إذ بدأت حركة الانتقال من المغرب الجديد إلى عاصمة دولة الخلافة الإسلامية فى دمشق وبغداد ، حتى يتعرفوا العلم ، وينهلوا من معارف الإسلام العالية ، وكان من ذلك الانتقال أن حدث تزاوج لأهل المغرب الإسلامى من المشرقيات ، والعكس من المشارقة للمغربيات .

كما راح كل من يقترن بمشرقيه يسعى حتى ينتقل إلى بلاد المشرق الإسلامى طلبا للعلم ، أو تنتقل معه هى إلى المغرب الإسلامى طبقا للاستقرار ، فيحدث تزاور من الأصول للفروع ، أو من الفروع للأصول إجابة لدعوة ، أو ابتداء لدعوة ، وفى نفس

---

(١) ذلك ما أشعر به فى داخلى ويشاركنى فيه أهل العرفان بالله رب العالمين .

(٢) الأمير شكيب ارسلان – الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية جـ١ ص٢٤٦ – الطبعة الأولى ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م – مطبعة الرحمانية .

الوقت تمت زيجات من المشارقة بالمغربيات بما يعادل زواج المغاربة من المشرقيات ، ان لم تزد عليها[١] ، وكان من نتيجة ذلك كله وجود جيل جديد أصوله إسلامية خالصة ، سواء من المشارقة والمغربيات ، أو من المغاربة والمشرقيات .

كما ان ذلك الجيل صارت لديه الرغبة فى الانتقال بين الشطرين الإسلاميين – المشرق والمغرب – طلبا للعلم ، أو لترابط اجتماعى ، أو تبادل سلعى إلى غير ذلك من الوجوه التى يسعى اليها الناس ، حتى صار الشطران قرية واحدة ، وقد أثر ذلك كله بشكل أو أخر فى جعل الفلسفة الإسلامية المنظمة فى المغرب الإسلامى تتأخر عن قرينتها فى المشرق الإسلامى .

كما كان لطبيعة بلاد الأندلس بعد الفتح الإسلامى من سحر وجاذبية أمر مهم دفع بالبعض من مسلمى المشرق إلى الهجرة الدائمة لبلاد الأندلس الإسلامى ، ومن تبادل الهجرات يقع اختلاط للثقافات[٢] ، الذى كان من نتائجه ظهور تلقيح ثقافى استفادة المغرب الإسلامى من المشرق الإسلامى فى الجوانب المعرفية المختلفة ، وبالأخص فى الفلسفة التأملية ، والآداب الفنون والطب والهندسة وسائر المعارف التى بدت تؤتى ثمارها متأخرة عن مثيلتها فى المشرق الإسلامى على ما سلف القول به .

وبالتالى فما وجد فى المشرق الإسلامى من ثقافة ومعارف بدأت صوره تنتقل إلى المغرب والأندلس بنفس القوة ، مضافا اليها النتاج العقلى الذى أضافه أهل الإسلام فى المغرب الإسلامى[٣] كنوع من الثقافة والمعارف ، مما كان له كبير الأثر فى العمق والرواء

---

(١) الدكتورة / هناء صفى الدين – أثر النظام الأسرى فى الأندلس – ص٩٧ ط كركوله ١٩٤٧ .

(٢) الشيخ / محمود على الجعفرى – أثر الزواج فى ترابط المسلمين ص١٥٣ ط الجعفرية ١٩٢١ .

(٣) الأستاذ / محمود رفعت محمد عبدالحليم – أثر الإسلام فى التراث الإنسانى ص١٧٥ – الطبعة الثانية ١٩٦٧ كركوك .

مع الطرافة والسلاسة التى عرفت بها الحكمة الإسلامية فى المغرب الإسلامى فيما بعد ، وكان لها العديد من الجوانب الإبداعية على النحو الذى سوف نلمح اليه ان شاء الله تعالى .

بيد أن ذلك الأمر فى الإبداع لا يمكن تجاهله باعتبار ان الحكمة الإسلامية قد بلغت أوجها فى المشرق الإسلامى على أيدى فرسانها المبرزين من أمثال الكندى ١٨٥/٢٦٠هـ ، والفارابى المتوفى ٣٩٩هـ ، وابن سينا ٣٧٥/٤٢٨هـ ، الذين كانوا علامات متميزة فى مجال الدراسات العقلية على الناحية الإسلامية[١] ، حيث جعلوا المحافظة على النقل المنزل وخدمته ، وبيان أهدافه غاية لا يمكن التفكير فى غيرها ، أو القناعة بالوقوف عندها ، بل لابد من الاعتماد عليها بجانب رفض الاستعانة بغير النقل المنزل فى المسألة إلا إذا كان من اجتهادات علماء المسلمين حول فهم النقل المنزل نفسه .

إذن الزعم بأن أهم حادث فى تكوين الفكر الفلسفى الإسلامى كان دون شك لقاؤه بالفلسفة اليونانية فى بغداد أيام حكم الخليفة المأمون[٢] ، زعم باطل وأمر لا ترجحه الأدلة ولا تنهض له الشواهد ، وإنما هو مجرد ظن إذا افترضنا فى أصحابه حسن النية ، أو التجرد من التعصب والحسد على المسلمين ، لما هو قائم عندنا على جهة التأكيد من أن النقل المنزل هو الأصل الشرعى الذى قاد المفكرين المسلمين إلى وضع قواعد الحكمة الإسلامية ، وهو الذى دفعهم إلى الخوض فيها بعد إنتاجها[٣] ، وهو

---

(١) راجع كتابنا - المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية فقد تعرضت فيه لذكر العديد من تلك الجوانب .

(٢) شاخت وبوزورت - تراث الإسلام جـ٢ ص٦١ - ط ثانية ١٩٨٨م - سلسلة عالم المعرفة بالكويت مايو ١٩٨٨م - ترجمة د/حسين مؤنس وآخر .

(٣) راجع كتابنا - قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ص١٨١ ط٣ ١٩٩١م .

الذى يحفظ ذلك الجانب من التفكير العقلى متى التزم أصحابه التوجيه القائم فى الدين الإسلامى الحنيف .

فى نفس الوقت فإن ظهور الحكمة الإسلامية فى المشرق الإسلامى على شكل مبكر عنه فى المغرب الإسلامى ، لا يمكن نسبته إلى الفكر اليونانى كما يزعم بعض المتعصبين الذى تمثل آذانهم عقولهم فيرددون كل ما يلقى إليهم من غير تفكير فيه أو تفهم له ، حتى أنهم يقولون بإلحاح شديد " أن أهم حادث فى تكوين الفكر الفلسفى الإسلامى هو لقاؤه بالفلسفة اليونانية ، ويؤكدون أن هذا الأمر لا ينكره الا مكابر[1] ، والحقيقة التى أراها هم المكابرون وأحكامهم جائرة لم تقم على أسس أو قواعد مقبولة ، وليس فيها شيء من الموضوعية .

بجانب أنها تمثل نوعا من التقليد المذموم الذى سار أصحابه خلف أوهام المسرح التى يتلاعب بها الآخرون ، ويجب التخلى عنها وعدم التصديق بها ، لأنها لم تقم على أسس أو قواعد مقبولة ، وإنما كل ما حولها أنها صدرت عن شخصية عندهم مشهورة ، وهى أيضا تمثل صورة لأوهام الجنس التى قطعها القرآن الكريم ، وبين فسادها فى قوله تعالى ﴿" وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون "﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿" وقالوا ربنا أنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا أتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا "﴾[3] .

---

(١) الأستاذ / عبدالقادر السيد البحراوى – أثر الفلسفة السينوية والرشدية فى أوربا أبان العصور الوسطى ص٢٠ رسالة ماجستير مخطوطة بآداب الزقازيق ١٩٨٠م .

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٦ .

(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٦٧/٦٨ .

سادسا : تأخر الاستقرار

من المعروف أن بلاد الإسلام فى المشرق استقر أمرهـا مـن بدايـة الهجـرة النبويـة المباركـة ، وإنشـاء الدولـة الإسـلامية التـى اسـتمرت مـع الخلفـاء الراشـدين حتـى عام ٤٠هـ[١] ، ثم انتقلت إلى خلافة فى بنى أمية من الناحية السياسـية ، وحـاول بنـو أمية التمسك بالدين الإسلامى وتعاليمه ، وتشجيع العلماء والمفكرين على الأخذ بأسباب العلم والتقدم فى أطوار الحضارة ، وظل ذلك الحال فيهم حتى انتهت خلافتهم بالمشرق فى نهايات الربع الأول من القرن الثانى الهجرى[٢] .

أما المغرب الإسلامى فقد اضطربت الأمور فيه وظلت تهدأ حينا ، فينشط المفكرون ويبدع العلماء ، ثم تنقلب الأمور فتخبو جذوة العلم ، وينطوى النبهاء[٣] ، واستمر ذلـك الحـال معـهم حتـى بدايـة الخلافـة القويـة مـع عبدالرحمـن الثـالث وابنـه الحكـم المستنصر ٣٠٠/٣٦٦هـ ، وهى فترة طويلة تفسر لنا تأخر ظهور الحكمـة الإسـلامية فـى المغرب الإسلامى على ناحية تنظيمية ، وان بـدت فـى أشـكال فرديـة تغـدو وتـروح ، وسوف نعرض لذلك أثناء حديثنا عن الحياة العقلية فى الأندلس والمغرب الإسـلامى ان شاء الله تعالى .

وبذلك يتضح لنا أن تقدم النتاج العقلى الفلسفى فى المشرق الإسلامى على أيدى مفكرى الإسلام الأوائل كانت له العوامل والدوافع التى أدت اليه ، وأنها فـى مجملـها غير معتمدة على الفلسفة اليونانية ، كما ان تأخر ذلك النوع من التفكير عن الظهور فى

---

(١) وكان ذلك عام ١٣٢هـ تقريبا ، وبعدها فر عبدالرحمن الداخل إلى المغرب وانضم اليه جمع من مريديه ، وتغلبوا على القوطين بالمغرب وبدءوا فى تأسيس الدولة الأموية هناك اعتبارا من ١٣٨/٤٠٠هـ .

(٢) الدكتورة / علياء فوزى البطل - الحياة العقلية فى الأندلس ص٢٧١ .

(٣) راجع أثر الفقهاء على المبدعين ص١٥٧ للدكتور سامح محمد منصور .

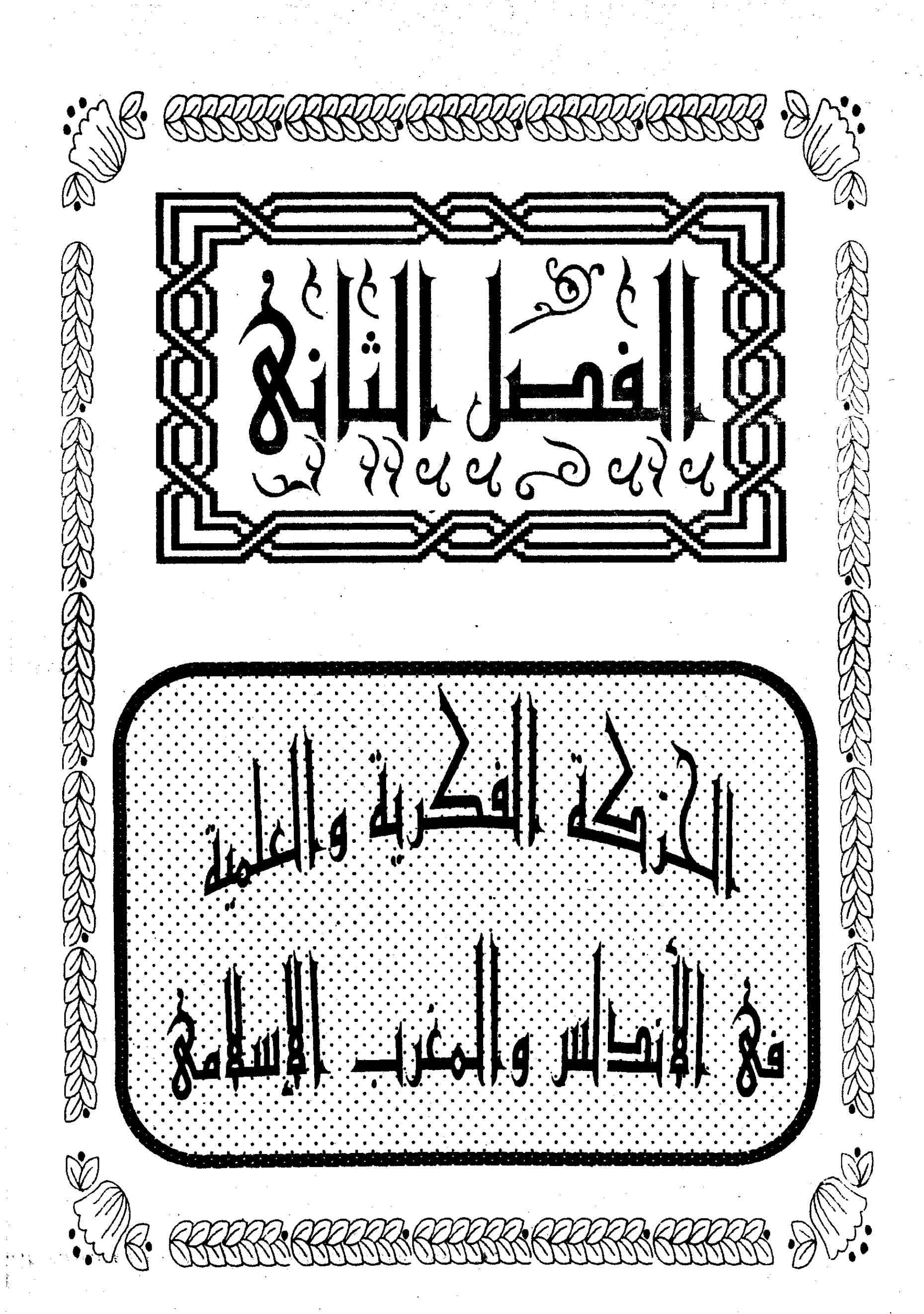
المغرب الإسلامى كانت له الدواعى والعوامل والأسباب التى أدت اليه على ما سلف تقديم الماحه عنه .

ثم تتغير الأحوال ، فتصير الحكمة والفلسفة الإسلامية فى المشرق منزوية فى كهوف النسيان ، يقوم بها أفراد قلائل فى توجس وخيفة من الرأى العام[1]، حتى توشك أن تنساب فى علوم أخرى ومعارف متباعدة عنها ، بينما هى فى المغرب الإسلامى تستوى قائمة ، وتنتصب يافعة ، مما يجعلنا نحاول البحث فى الدوافع التى أدت إلى ظهورها فى المغرب الإسلامى بجانب قوتها وسرعتها مع غزارة الإنتاج والعمق مع الرواء ، وفوق ذلك السلاسة فى التناول والسهولة فى الأداء .

لكن من المناسب أن نتعرض للحياة العقلية فى الأندلس والمغرب الإسلامى ابتداء من الفتح الإسلامى العام لها ٩٢هـ حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ فى أيدى القشتاليين بقيادة فرديناند الثانى ملك قشتالة فى ، وإتمام تسليمها له فى ٢ يناير ١٤٩٢م الموافق الثانى من ربيع الأول ٨٩٧هـ ، ودخوله قصر الحمراء الكبير الذى كان مركز إقامة واستقبال الملوك فيما مضى أبان وجود المسلمين هناك ، فما هو الوصف العام للحياة العقلية فى الأندلس الإسلامى ابتداء من دخول الإسلام هناك حتى خروج المسلمين منها بعد فتح زاد عن ثمانية قرون تقريبا .

---

(١) وهو العام الذى تمت الغلبة فيه لبنى أميه على يد معاوية بعد استشهاد سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه


الفصل الثاني
الحركة الفكرية والعلمية
في الأندلس والمغرب الإسلامي

عرفنا أن الفتح الإسلامي العام للأندلس قد ابتدأ عـام ٩٢هـ ، وأن استقرار هـذا الفتح قد واكب عام ٩٥هـ ، وكان لابد أن يقدم هؤلاء الفاتحون بترتيب أمورهـم داخـل الأندلس والبلاد المجاورة له ، حتى يؤدى الفتح الإسلامي الغاية منـه[1] ، وفـى نفـس الوقت فإن الأندلس قبل هذا الفتح كانوا خليطا من البربر والأيبيرين بجانب الوندال ، وغيرهم من الطوائف والجماعات القوطية التى كانت تتوالى على هذه البـلاد ، ،كذلـك عـدد قليـل مـن العرب المسلمين الذيـن نزلـوا تلك البـلاد مـع مطـالع صـدر الدعـوة الإسلامية ، حتى يكونوا دعاة وللحق هداة .

وقوم ذلك شأنهم لابد أنهم يحتفظ كل منـهم بتركيباتـهم الذهنيـة ، وتكويناتـهم الاعتيادية ، إلى غير ذلك مما هو مألوف عندهم مـن الأمـور التـى لم يكـن مـن السـهل عليهم التخلى عنها معهم حتى بداية الفتح الإسلامي العام ، وان كـانت لديـهم بعـض الاستعدادات النفسية للتفكير فى الجديد الوافـد[2] ، متـى كـان ذلـك يرفـع عنـهم ذل العبودية ، ويزيح عن كاهلهم عبئ الانكسار ، ويفك لهم أغلال الظلم والاستعباد .

والمتـابع للحركـة الفكريـة والعلميـة فـى الأندلـس الإسـلامى أبـان الفتـح الإسلامي (٩٢/٩٥هـ) يراها قد مرت بعصور مختلفة ، وقيادات سياسية متعـددة كـان لها من التوجيهات الكثير ، ومن الانطلاقات العديد ، وهى كلها كـان لهـا أثرهـا فـى تطور تلك الحركة الفكرية أو تقهقرها ، نذكر من أبرزها :-

---

(١) الدكتور / على بكرى عبدالوراث السيد - الفتح الإسلامى للأندلس ص٦٩ - الطبعة الأولى ١٩٥١م .

(٢) هذا الوصف ينطبق على غير أهل الإسلام ، لأن المسلم لا يفكر بعد اعتقاده فى المسألة أبدا

(١) عصر الفتح بداية واستقرارا

أجل ان الفتح الإسلامى العام لتلك البلاد اعتبارا من سنة ٩٢هـ واستمر قرابة أربع سنوات ، وهو يمثل الفترة التى استغرقت مدة الفتح ذاته ، حتى تم الاستقرار النهائى له وهو ما يسمى عصر[1] الفتح الإسلامى العام .

(٢) عصر الولاة أو الأمراء[2] التابعين للولاية الإسلامية فى المشرق الإسلامى ٩٥/١٣٨هـ

لما استقر الأمر للمسلمين فى الأندلس وراحوا يمارسون شعائر دينهم الحنيف بدأ الناس المختلطون بهم يتطلعون إليهم ، فلما وجد الفاتحون تلك الرغبات فى نفوسهم تعبر عنها وجوههم أخذوا ينشرون بين أهلى تلك البلاد قواعد دينهم وتعاليم شريعتهم السمحة ، ويعلمون الناس مبادئ دينهم الحنيف ، حتى يحققوا أمر الله تعالى فى الإبلاغ ، ويحرروا بالعدل شعبا أشتد شوقه للحرية ، وتعالت رغباته فى تحطيم قيود الانغلاق الفكرى والاستعباد العقلى والجسدى لغير الإله جل علاه .

---

(١) راجع فى هذا الشأن - الروض المعطار للعلامة الحميرى ، ونفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب للعلامة المقرى ، والعبر للعلامة ابن خلدون ، وفجر الأندلس للدكتور / حسين مؤنس ، ودولة الإسلام فى الأندلس للأستاذ / محمد عبد الله عنان ، وتاريخ الأمة العربية للدكتور عبدالفتاح شحاته ، الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى للعلامة السلاوى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب للعلامة ابن عذارى المراكشى وغيرها من المصادر التاريخية القديمة والحديثة التى تابعت أخبار الفتح الإسلامى للأندلس وتحدثت عنه بتفصيلات كثيرة .

(٢) وهذا العصر يذهب البعض من المؤرخين تقسيمه إلى :-

أ- عصر الإمارة التابعة ، وهو يبدأ من ٩٥هـ وينتهى ١٣٨هـ قرابة ستة وأربعين عاما من بداية .

ب- الفتح عصر الإمارة المستقلة ، وهو الذى يبدأ من ١٣٨هـ بمجيء عبدالرحمن الداخل للأندلس وقيادته له حتى اعلان الاستقلال التام عن الخلافة العباسية على يد عبدالرحمن الناصر الثالث ٣١٦هـ/ ٩٢٩م ، ونظر لأننا لا نؤرخ للناحية السياسية ، وإنما نتابع التطور الفكرى فسننظر فيهما على أنهما واحد بهذا الاعتبار.

من فقد انتشر التابعون من أهل الإسلام – رضى الله تعالى عنهم – فى تلك البلاد حاملين معهم مشاعل الحضارة الإسلامية[1] ، فهم يتلون القرآن الكريم ويعلمونه لمن يطلبه ويفسرونه لمن يسأل عنه ، ويكتبونه لمن يرغب فى تعلم الكتابة العربية ، ويقضون ما أمر الله تعالى فيه ، متبعين هديه وأحكامه أخذين أنفسهم به التزاما وتدبرا بجانب العمل والعبادة على النحو الذى أمكنهم فهمه من الآيات القرآنية ، واستقرت عليه أفهام علماء أهل الإسلام من السلف الصالح – رضى الله تعالى عنهم – والتابعين وشيوخ العلم والعرفان بالله تعالى .

كما أنهم راحوا يروون السنة النبوية المطهرة الصحيحة ، ويجعلونها مع القرآن الكريم فى كل ما يحتاج إلى الاستدلال عليه ، أو الاقتباس منه ، أو تناوله باعتبار الأحكام التى جاء بها النقل المنزل ولابد منها فى أنماط الحياة المختلفة ، كما يعلمونها لغيرهم عن طريق الرواية لها ، وبيان كيفية استفادة الحكم الشرعى منها ، والتعريف بها سندها ومتنها[2] ، إلى غير ذلك من المباحث الفنية الدقيقة التى كان الفاتحون من أهل الإسلام يعرفونها فى الغالب الأعم بينهم ويبلغونهم على الناحية الشرعية التى أمكنهم فهمها من النصوص الدينية ذاتها ، التى جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، من ذلك قوله ﷺ فيما رواه سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه « نضر الله أمر

---

(١) الدكتور / بكرى عبدالوارث السيد – الفتح الإسلامى للأندلس ص٧٥ .

(٢) المعروف أن السنة النبوية المطهرة لم تدون إلا بعد تدوين القرآن الكريم الذى تم تدوينه ومراجعته فى عهد الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ ، وأن مطالع القرن الثانى الهجرى كان هو عصر التدوين العام للسنة النبوية المطهرة ، ولكن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يحفظونها فى صدورهم ، كما يحفظون القرآن الكريم ، وان كانوا يروونها بالمعنى أما القرآن الكريم فلا تجوز روايته الا باللفظ القرآنى ذاته – راجع أنوار السنة النبوية للشيخ منصور محمد الطيب ١٩٢٧م – مطبعة الرحمانية .

أسمع منا حديثا فحفظه متى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه »[1] .

بيد أن ساكنى تلك البلاد المفتوحة أخذوا أنفسهم بالنظر فى تعاملات هؤلاء الفاتحين وسلوكياتهم ، وراح العاقلون منهم ومن لديهم القدرة على وزن الأمور يتأملون نصوص الدين الذى يتبعه الفاتحون ، فإذا هى متوافقة مع السلوكيات ، كما أن علمهم هو نفس عملهم ، فهم لا يعلنون شيئا ثم يخالفونه ، وانما كل ما يقولونه هو نفس ما يفعلونه وفى كليهما الخير الذى لا يمكن تحصيله من جهة أخرى غير تلك الجهة الإسلامية[2] التى يباشر القيام بها ذلكم الفاتحون ، فبدأ نفر قليل من أهل تلك البلاد فى الدخول للإسلام يحيطهم التهيب ويقض مضجعهم الخوف .

فلما دخلوا فيه وراحوا يمارسونه عقيدة وشريعة وأحكاما ، علما وعملا وجدوا فيه الراحة العقلية والطمأنينة النفسية ، والهدوء العاطفى والإشباع الوجدانى ، وقد عرف بذلك من يتعاملون معهم ، فإذا بالأعداد المسلمة القليلة تتزايد آنسين فيه الظلال الوريفة والحياة الحرة الكريمة ، والعيش الذى تعقبه السعادة ، وراحة الضمير الذى لا يهدأ ، واطمئنان العقل الحائر الذى أضناه البحث عن مرسى يقف عليه يحيط به الأمن ، ويتحقق بجواره قدر كبير من الأمان ، فكان دخولهم الإسلام قائما على الطواعية والاختيار لا القهر والإجبار .

---

(١) الإمام الحافظ أبو بكر بن فورك – مشكل الحديث وبيانه ص١٠ – تحقيق الأستاذ موسى محمد على – دار الكتب الحديثة ١٩٧٩م .

(٢) وكيف لا والقرآن الكريم يطلب مطابقة القول الصائب للفعل الصائب ويحذر من المخالفة ، قال تعالى ﴿" يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون "﴾ . (سورة الصف الآيتان ٢/٣ .)

وهذا العصر قد تميز من الناحية العلمية بأنه الذى انتشرت فيه تعاليم الدين الحنيف عندهم ، ودخلت إليهم فيه العلوم الإسلامية التى كان لها وجود واسع فى المشرق الإسلامى ، كالعلوم العربية التى تعين على نقل الأصول اللغوية وكيفية العامل معها وتفهمها خدمة للنقل المنزل ذاته والعلوم الشرعية[١] ، من فقه وحديث وتفسير بجانب العقيدة والأخلاق ، وقد كان الفاتحون ينظرون اليها بعين الاعتبار وأنها هدف من أهداف تبليغ الدين نفسه[٢] ، لأن بها حماية النصوص الدينية بجانب التعرف عليها وتفهمها فكانوا يدخلونها البلاد المفتوحة على سبيل الممارسة منهم لها .

ولما كانت الممارسات للأحكام الشرعية هى المحك فى صدق الانتساب للعقيدة الدينية من حيث الظاهر ، فإن الاهتمام بالمسائل الفقهية ، وكيفية التعرف عليها ، والقدرة على استنباطها من لسان الشرع ، فكان تطبيقها على الحالات المتماثلة هو الغالب على غيره من سائر الفروع الإسلامية الأخرى فى تلك البلاد على أساس أن الحاجة اليه تتم فى التعاملات اليومية ، بل وفى العديد من الأمور الوقتية[٣] ، كالصلاة وأحكامها والزكاة ومقاديرها ، وأمور النكاح والطلاق والعدة وأحكام الميراث والجنايات ، وما يتعلق بالنواحى الفقهية على وجه العموم .

إذن سوف تعلو على غيرها طبقة الفقهاء الذين هم القضاة فى تلك المسائل دون غيرهم المبلغون لها القائمون بها، وسوف يبهر الناس ذلك البريق اللامع للفقهاء والسلطان الدينى الذى لهم فى النفوس مما سيجعل الكثيرين يحاولون التمكن منه

---

(١) فى تقديرى أن العلوم الشرعية يدخل فيها كل ما يخدم النقل المنزل من لغة وفروعها وفقة وما يستتبع ذلك لأنها قائمة كلها على خدمته فمن المناسب أن يسمى به من باب تسمية الشيء باسم غايته .

(٢) الدكتور / عبدالباقى لطفى - دراسات قرآنية ص١٢٣ ط ثانية ١٩٧٢م .

(٣) الدكتور / محمد السيد عبدالحكيم - العلاقة بين العقيدة والشريعة فى الإسلام ص١٩٧ ط أولى - الدار البيضاء ١٩٥٦م .

والقيام بدور الفقيه وذلك ما يجعل كفة الفقهاء فى العدد والذيوع مع الانتشار على غيرهم من باقى الطبقات الأخرى كالمفسرين والمحدثين ومن كان مع جانب غير الفقهاء يقف ، وبخاصة بعد أن أنشأ أحد الأمراء ديوانا خاصا للتوفيق بين أحكام الشريعة ومصالح البلاد المفتوحة[1] ، وكانت قيادته فى أيدى الفقهاء فقط دون مشاركة من أحد غيرهم .

فى نفس الوقت فإن هذا العصر من الناحية السياسية قد مر بالعديد من المراحل بعضها هادئ نسبيا[2] ، وبعضها قلق عنيف ،واضطراب ربما هدد وجود المسلمين بالأندلس نظرا لتباعد السلالات الموجودة بالأندلس فى ذلك الوقت بين أسيوى عربى ، وبربرى أفريقى ، وأسبانى أوربى ، وقوطى غير معروف مصدره[3] ، ومحاولة احتفاظ كل بطباعة وخصائصه وما ينشأ عنه من اضطراب وخلاف يقض مضجع الدولة الهادى ، ويقلق أمالها على نحو من الأنحاء وقد ظلت البلاد تحت هذا الظرف فترة طويلة نسبيا .

ثم شاء الله تعالى أن يجيء لإمارة الأندلس عبدالرحمن الداخل[4] ١٣٨هـ الذى تميزت فترة حكمه بالانتقال من مرحلة إلى أخرى فيها الهدوء والاستقرار وتهيئة الأجواء للأخذ بأسباب الحضارة الإسلامية وتطبيقها ، وقد نجح الرجل فى ذلك نجاحا كبيرا بتوفيق الله تعالى حتى يمكن اعتبار فترة حكمه بداية للتحضر الحقيقى الرفيع

---

(١) الأستاذ محمد عبداللطيف العبد - دور الفقهاء فى الأندلس - ص١٧٨ .

(٢) العلامة عبدالرحمن بن خلدون - العبر جـ٤ ص٢٥٦ والعلامة ابن عذارى المراكشى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ٢ ص٢٥ - ط دار الثقافة بيروت .

(٣) العلامة الأمير شكيب ارسلان - الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية جـ١ ص٢٤٦ - الطبعة الأولى بالمطبعة الرحمانية ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م ، وأراه ضروريا لمن يؤرخ للأندلس .

(٤) يذكر المؤرخون أن دولة بنى أمية انتهت فى المشرق ١٣٨هـ فى ذات الوقت الذى كان يوسف بن عبدالرحمن الفهرى المضرى واليا على الأندلس من غير أن توافق الخلافة الأموية على تعينه ، وظل عشر سنوات واليا على الأندلس فلما سقطت الدولة الأموية فر عبدالرحمن الأموى إلى المغرب ، ثم عبر إلى الأندلس ١٣٨هـ/٧٥٥م ، فانضم اليه جموع غفيرة ، فما كان من يوسف الفهرى الحضرى ، إلا مقاومته فى معركة المسارة التى هزم فيها عبدالرحمن الفهرى ، وانتصر عبدالرحمن الأموى الذى بويع بالإمارة فى الأندلس واستقل بها وكان ذلك بداية قيام الدولة الأموية بالمغرب والأندلس ، وقد نجح هذا الرجل فى القضاء على الزعامات المحلية والعناصر الناقمة ، وفى عهده بلغت الأندلس فى العلم والمعرفة بجانب الاستقرار ما لم تبلغه من قبل على يد غيره ، وهناك غير عبدالرحمن الداخل هذا عبدالرحمن الأوسط ، وكذلك عبدالرحمن الثالث ، ولكل منهم عصره وظروفه التى قد نعرج عليها .

الذى بدأت ثمار غرسه تظهر مبكرة[1] ، بل وراح الناس يحبونها ويتطلعون اليها فى كافة نواحى العلوم والمعارف المختلفة ويتذوقونها فإذا هى شهية المذاق قادرة على الطفو . متمكنة من العقول فاتحة صدرها للآراء المختلفة دون حجر على رأى أو اضطهاد لمفكر جيد ، أو عالم متمكن ، أو أديب مبدع ، أو فنان على قدر من النباهة والفهم .

(٢) عصر الخلافة التابعة ١٣٨هـ

بدأ عصر الخلافة التابعة للدولة العباسية فى المشرق الإسلامى[2] مع اعتلاء عبدالرحمن الداخل عرش إمارة الأندلس ١٣٨هـ ، وقد نعمت البلاد أبان حكمه بالكثير من الاستقراء مما أتاح الفرصة للعلماء حتى ينطلقوا فى الطريق الذى مهدوه بتفقه الناس فى الدين الذى اعتنقوه ، وقد كانت عناية عبدالرحمن الداخل بالعلم ومحبته للعلماء من مظاهر ذلك العصر حيث جعل الرجل للعلماء فيه المكانة الرفيعة بعد أن نالوا الحظوة وبدأت المذاهب الفقهية تنتشر هى الأخرى فى ربوع تلك البلاد ، وبخاصة بعد أن بويع عبدالرحمن الداخل ١٣٨هـ أميرا للعرش ، ثم قطع الدعاء لبنى العباس فى بغداد[3] ،وبعدها أنفصل عن الخلافة العباسية ، لكنه لم يعلن خلافة جديدة وإنما الذى أعلنها هو عبدالرحمن الثالث عام ٣١٦هـ ، وصار عرشه ملكا لبنى أمية من بعده فى

---

(١) الأستاذ / نور الدين عبداللطيف - الأندلس الإسلامى - عصر الولاة والأمراء ص٣٧٩ - الطبعة الثالثة .

(٢) حينما امتلك العباسيون الخلافة الإسلامية كانت الأندلس هى الأخرى إمارة تابعة لنفس الخلافة ، ومن المعروف أن عاصمة الخلافة فى المشرق كانت فى دمشق أبان الأمويين ، وأنها كانت فى بغداد أبان حكم العباسيين .

(٣) العلامة أبو عبدالله بن الآبار القضاعى - الحلة السيراء ص١٩٨ - تحقيق عبدالله أنيس الطباع - دار النشر للجامعيين بيروت ١٣٨١هـ/١٩٦٢م - راجعه ففيه كلام جيد فى هذه المسائل .

المغرب الإسلامى وعرفت باسم الخلافة الأموية فى المغرب ، كما كان من قبل للأمويين فى المشرق الإسلامى .

ولا شك أن عصرا كهذا فيه استقرار من الذى ألمحنا اليه فلابد أن تصاحبه قفزات علمية وحضارية فى كافة المجالات ، وأن تأخرت فى بعضها وتقدمت فى البعض الأخر[١] .

❁ **لكن الواضح ان هذا العصر كانت له سمات علمية وتطورات فكرية من أبرزها**

[١] **تمركز السلطة الدينية في بني أمية** : حتى يضمنوا سلامة التبليغ للأحكام الشرعية[٢] ، وتطبيقها على الوجه الأمثل من الناحية الشرعية ، وهو جانب مهم حرص عليه بنو أمية ، حتى لا تتسلل الأفكار الأخرى إلى سلوكيات المسلمين التى عرفوها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وما أستقر عندهم مما أجمع عليه العلماء وتوارثه الناس عنهم[٣] ، وذلك من شأنه تثبيت العقيدة فى النفوس والعمل على مواءمة الشريعة والأخلاق لها ، فلا يخشى على المسلمين بعدها من أن يتأثروا بالأفكار الأخرى ، وهو ما يتيح للناس أن يفكروا فى كل أمورهم وقضاياهم بشيء من الحرية العقلية المبدعة

[٢] **التسامح الديني** : إذ أن بنى أمية قد حرصوا على حماية أهل الذمة فى أنفسهم وأعراضهم وعقائدهم وعاداتهم ، وفى كل ما يتعلق بهم من النواحى العقلية والدينية والاجتماعية أيضا ، وحتى يضمن عبدالرحمن الداخل ذلك لهم فقد أنشأ

---

(١) الأستاذ / حمزة عبدالعاطى - بنو أمية فى الأندلس ص٧١ - الطبعة الأولى ١٩٤٢م .

(٢) الأستاذ / محمد عبدالله عنان - تاريخ العرب فى أسبانيا ص١٩٨ .

(٣) وهذا ليس تقليدا مذموما ، وإنما هو تقليد العالم بدليل معه وذلك مم يرجحه العلماء - راجع مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيميه - المجلد العاشر ص٢٣٥ وما بعدها .

إدارة خاصة لها مسئول عنها عرف باسم القومسى[1] ، وهو الذين يدير شئونهم . ويكون مسئولا أمام الأمير نفسه عن كل تقصير أو جور يقع عليـــهم ، وذلـك ممـا أتاح لهم ممارسة الحرية فى كل ما يعرض لهم حتى انطلقوا إلى المباحث العقلية والعلمية ، التى كانت ضمن ثقافاتهم الموروثة ، والإعلان عنها كمطروح فكرى .

فلما التقى ذلك بالأفكار التى كانت تجرى فى عقول أهل الإسـلام حـدث تضاحن فكرى ، ومن كان ذلك شأنه فلابد أنه سيدفع كلا منهما إلى التأكيد على صحة وصواب آرائه ، ومحاولة تقديم أدلة جديدة لها[2] ، وهو ما يشحذ العقـول ويدفعها إلى البحث العقلى والفكرى بأقصى ما فيها من طاقة ، وان كانت نتائجه ربما تتأخر عن مقدماتها بعض الشيء ، أو قليلا من الوقت .

[٣] **الاهتمام بالعلماء** : الذين ينصب اهتمامهم بالعلوم الدينية التى تقتضيها الحيـاة اليومية فى كل البلاد الإسلامية ، ثم أعقبه الاهتمام بالعلماء الذين لهـم تطلعـات فى مجال خدمة العلوم الدنيوية ، بل أن بعض علماء الدين المعنيين به قد شغلوا أنفسهم بالعلوم الدنيوية أيضا[3] ، وقد نجحوا فى الجمع بينهما نجاحا كبـيرا ، ونالوا نفس العناية من الأمير الذى كان حريصا على مؤازرة والأخذ بأسباب العلم مع المدنية .

---

(١) الأمير سكيب ارسلان الحلل السندسية ص٢٤٧ وما بعدها .

(٢) الدكتورة / هانم عبد العظيم محسن – أثر ا لتسامح الدينى فى نهضة الأندلس ص١٢٣ .

(٣) فى غير الإسلام رجال دين ومعناه أنهم وحدهم الذين لهم الحق فى القول به أو اخترعه ، أما فى الإسلام فعندنا نحن المسلمين مصطلح علماء دين ، وهم الذين يعرفونه ويبلغونه رجلا كان أو امرأة المهم أن يكون متمكنا عاملا فإذا لم يكن ذلك لم يوصف بأنه عالم دين .

من ثم فقد اهتموا بالعلوم المعتمدة على العقل والتجربة ، بجانب اهتمامهم بالعلوم المعتمدة على النقل المنزل . حتى صح القول بأنهم فرقوا بين النقل والحقل ، كما فرقوا بين مُنَزِّل النقل ، ومعطى العقل ومن المؤكد إذن ذلك سوف تظهر له آثار ابتداء من القرن السادس الهجرى ، ثم تعلو وتزدهر فيما بعد حتى تبلغ النضج والكمال فى كافة الفروع والمعارف .

ويعبر عن ذلك العلامة "المقرى" حين يقول واصفا حال هؤلاء فى العصور التى تلت عصر الداخل : « قل أن ترى من أهلها ما لا يقول شعرا ، ولا يعانى أدبا ، ولو مررت بالفلاح خلف أرضه يستزرع فدادينها وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، واى معنى طلبت منه أجابك من الفور عليه »[1] ، بما يدل على عبقرية متمكنة ورصيد ثقافى معرفى كبير جدا كان من نتائج حرية البحث العلمى التى قام بها عبدالرحمن الداخل مطبقا تعاليم الإسلام فى ذلك الجانب .

غير ان دوام الحال من المحال إذ أن تلك البذور التى غرسها الداخل لم تكد فى العطاء الجيد حتى بات أمر الفقهاء غالبا غيرهم وساد مذهب الإمام مالك بقية المذاهب الأخرى ، وبقدر ما كانت سيادته كمذهب فقهى من العوامل التى جنبت البلاد الشرور والفتن المذهبية البغيضة التى غلبت فى بلاد المشرق الإسلامى[2] بقدر ما كان له أثره السلبى على الفكر العقلى الحر ، أما لماذا ؟

فلأن هؤلاء الفقهاء وقف الأمر عند بعضهم حد التزمت ، وكان صوتهم أعلى من غيرهم ، حتى مكن لهم ذلك النفوذ من إعلان ثورتهم على من يشاءون ، وأن يعطلوا

---

(١) العلامة الشيخ / أحمد بن محمد المقرى - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ١ ص١٨٤ ط دار صادر بيروت ١٩٦٨م ، وفيه كلام طيب فأرجع اليه تظفر به .

(٢) الأستاذ متولى حسن عبداللطيف - دراسات فى الخلافة الإسلامية بالأندلس ص٧٣ .

السيرة العلمية فى جانبها الدنيوى متى أرادوا ، وأن يهاجموا الرموز السياسية عن طريق الفتاوى والمواعظ التى كان لها أثر كبير فى نفوس العامة[١] ، وفعل السحر فى بعض صدور الخاصة ، حتى أنهم أشعلوا ثورة عارمة ضد الحكم ١٨٠-٢٠٦هـ بن هشام بن عبدالرحمن الداخل الذى تولى الخلافة بعد أبيه هشام وقادوا تلك الجموع الثائرة عليه فى معركة الرابض التى أوشكت أن تنتهى لصالحهم لولا أن جاءت الأمور على غير ما يتوقعون .

أجل كان هشام بن عبد الرحمن الداخل رجلا مرهف الحس ، محبا للعلم والعلماء ، أديبا عالما ، فلما ولى إمارة الأندلس خلفا لأبيه الداخل أزاد فى إكرام العلماء وتقريبهم منه ، والإنصات لنصائحهم التى كانوا يقومون بها ، والنزول على الفتاوى التى يصدرونها ، وقد نالوا فى صدره الحظوة ، وفى قلبه المكانة ، وفى حكمه المنزلة السامية الرفيعة[٢] ، حتى شعروا بذلك وأدركوا أن هناك خطا رفيعا فاصلا بين الفتوى ودور الحاكم فى الولاية ، ومن ثم فهم لم يحاولوا القفز من الفتوى إلى كرس الحكم مباشرة ، فكانت العلاقة بين الأمير هشام والعلماء قوية[٣] من هذه الناحية بجانب أن أواصرها متينة على النواحى الأخرى .

فى نفس الوقت فإنه أجرى للعلماء أرزاقهم بدرجة كبيرة فى التوسع الذى لم يكن يخطر لهم على بال ، كما أستقدم الكتب من المشرق الإسلامى إليهم ، وتجاوز فى العطف عليهم الحد الذى جعل العلماء يحيطون أنفسهم بهالة من الاحترام والاعتداد بالنفس ربما قاربت منزلة الأمير نفسه ، ان لم تزد عليه ، وهو جو يهيئ النفس

---

(١) الدكتورة / وفاء عبدالهادى الضبع - الأندلس فى عصر الأمراء ص٢٨١ .

(٢) الأستاذ / مراد عبدالملك - أثر الفقهاء فى الأندلس ص٢٥٣ .

(٣) الدكتور / توفيق عبدالمعبود - الحضارة الإسلامية فى الأندلس جـ١ ص٢٣٢ .

للهدوء ، ويعين العقل على تحصيل المعارف والإنتاج العلمى الهادئ بعيدا عن الضغط النفسى ، أو الحجر على مناطق الإبداع فى العقل الإنسانى .

وأمر كهذا من شأنه أن يجعل صاحبه يتحرك بحرية عقلية تامة – ونفس وثابة ، وجوانح متطلعة – فى ميدان العلوم المختلفة بحرية تامة ، ويبدع فيها على جانب كبير من الإتقان مع الوفرة فى الإنتاج والجودة أيضا ، وكان ذلك كله يبشر بنهضة علمية واعدة تخطو نحو الأمام فى ثقة علمية متمكنة واقتدار .

غير انه لما مات الأمير هشام هذا وتولى الإمارة بعده ابنه الحكم ابن هشام[1] ، وكان الفقهاء قد ظنوا فى أنفسهم سلطة قوية يمكنهم استخدامها فى مواجهة سلطان الحاكم نفسه ، فدفعهم ذلك الظن إلى القيام بممارسته لاختبار قوة الأمير هشام هذا ، فشحنوا الناس بالعداوة عليه ، وركزوا على سلبياته التى لم تكن مقصودة ، وهو أيضا غير معصوم . فلما قامت تلك الثورة عليه واجهها الحكم بن هشام بالعنف وظل عليه حتى خمدت[2] ، وشعر حينئذ أنه أقدر من الفقهاء على القيام بدور القيادة فى الإمارة وليس الفقهاء كما ظنوا . وذلك انتهى به إلى الاستبداد بالحكم ، وعدم الالتفات للفقهاء أو العلماء حتى يأخذ منهم مشورة أو يهتدى برأى فضلا عن أن ينالوا منه الرعاية التى كانت لهم أيام حكم أبيه أو جده ، وكان لذلك أثره السلبى على الحركة العقلية فى الأندلس الإسلامى .

إذن أمام العنف الذى باشره الحكم بن هشام هذا تراجعت النهضة العلمية التى أنشأها جده الداخل ، وحرص عليها والده الأمير هشام ، وتأخرت حركتها كثيرا ،

---

(١) إذن الحكم بن هشام هو ثالث أمراء بنى أمية فى الأندلس ، إذ كان أولهم هو عبدالرحمن الداخل ١٣٨هـ ، وثانيهما هو هشام بن عبدالرحمن الداخل ١٧٢هـ ، أما ثالثهما فهو الحكم حفيد عبدالرحمن الداخل .

(٢) الأستاذ / مراد عبدالملك – أثر الفقهاء فى الأندلس ص٢٥٧ .

حتى بات أمرها التراجع إلى الخلف بدل أن تنهض إلى الإمام كما أن فترة إمارة الحكم بن هشام قد استمرت ما يزيد على ربع قرن ١٨٠هـ - ٢٠٦هـ[١] ، وهى فترة طويلة وتأثيرها السلبى على الحركة العلمية الوليدة سوف يؤثر بشكل قوي فعال لغير صالح النهضة ، ويكون التقهقر والتراجع من أبرز السمات التى يطل المرء منها عليها ، وبخاصة أن العلم للإبداع يحتاج هدوءا واستقرارا ، والاستبداد نقيض الإبداع ، كما أن العلم نقيض الجهل ، والحرية نقيض العبودية .

فلما مات الحكم بن هشام ٢٠٦هـ ولى إمارة الأندلس الإسلامى بعده من أوصى له بها ، وهو ابنه عبدالرحمن الثانى المعروف بالأوسط[٢] ، الذى تميز بالورع الشديد والزهد فى الأبهة ، بجانب عدم الرغبة فى الحكم ، وقد تمتع بالطيبة والتسامح الشديد أيضا ، مما جعل الفقهاء يطمعون فيه طمعهم فى غيره ، وبخاصة انه تساهل كثيرا مع المقربين منه والبعيدين عنه حتى غلب على أمره من كل الطوائف إسلامية وغير إسلامية ، وصار مطمعا لكل من تسول له نفسه إشباع رغبة ما فوق أنقاض الحاكم المتهم بالضعف ، وهو لا يحاول إثبات العكس[٣] ، ولو فى مرة واحدة حتى يحسب له أنه قادر على إدارة شئون البلاد .

---

(١) وقد أمتدت فترة حكمه من ١٨٠-٢٠٦هـ ما يزيد على ست وعشرين عاما ، وهى من الفترات الطوال فى حكم بنى أمية فى الأندلس باعتبار أن عبدالرحمن الداخل ١٣٨هـ/١٧٢هـ ، وهشام ابنه ١٧٢-١٨٠هـ والحكم ابنه ١٨٠-٢٠٦هـ ، وعبدالرحمن الثانى ٢٠٦-٢٣٨هـ ، ومحمد عبدالرحمن بن الحكم ٢٣٨-٢٧٣هـ ، ثم المنذر بن محمد ٢٧٣-٢٧٥هـ ، ثم عبدالله بن محمد ٢٧٥-٢٩٩هـ ، ثم عبدالرحمن الثالث ٣٠٠-٣٥٠هـ .

(٢) إذ أن عبدالرحمن الداخل هو عبدالرحمن الأول ، أما عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل ، فيسمى عبدالرحمن الثانى ، وربما يعرف باسم عبدالرحمن الأوسط باعتبار أن الداخل هو الأول ، أما عبدالرحمن الناصر هو الثالث فى حكام بنى أمية ، ويكون الثانى هو الأوسط الذى أمتد به حكمه ٢٠٦-٢٣٨هـ .

(٣) الدكتور / السيد محمد رزق - الأندلس فى ظل حكم بنى أميه ص١١٣ سنة ١٩٧٤م .

وبخاصة بعد أن جعل اعتماده على الموالى والصقالبة والبربر وغيرهم من الأجناس المختلطة التى ليس لها وزن سياسى ، كما لا تحظى بالثقة من الجماهير فى السلوكيات التى يمارسونها ، من ثم فإن النهضة العلمية سوف لا تنهض سريعا على يديه ، لأنها واقعة بين ضغوط عديدة ، وفى نفس الوقت فإنها تنتظر ما يتربص بها من قسوة الفقهاء ، وانهزام رمز السلطة الحاكمة فى البلاد والتداخلات المستمرة بين العديد من المواقع التى يجب الفصل بينها .

كما أن هذا التساهل الذى أبداه عبدالرحمن الأوسط – الثانى – ، والتدخل المستمر من الفقهاء وغيرهم فى شئون البلاد العامة والخاصة ، وعدم التزام بعض الأمراء فى سلوكياتهم بالقاعدة العامة بالنسبة للسلطة السياسية وتوافقها مع السلطة الدينية ، أدى إلى تنامى سلطان أولئك الفقهاء وتحريك ثورة العامة وتعسف الأمراء ونقمة الجماهير التى رأت التدهور والتزمت معا يسيران فى موكب واحد متهالك[1] ، وظل أمر الأندلس على ذلك الحال حتى نهايات القرن الثالث الهجرى دون أن تحرز الحركة العلمية تقدما جديدا ، أو تسترد من بذور عبدالرحمن الداخل وأبنه هشام ما فقدته أيام إمارة الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل .

غير أن عبدالرحمن الثانى عهد بالإمارة لأبنه محمد ، فلما قام بها بعد أبيه حاول النهوض بالحركة العلمية مقلدا أجداده الأولين – عبدالرحمن الداخل وهشام – آخذا بسيرتهم ، ولكن ذلك الإصلاح كان يحتاج جهودا متآزرة[2] ، ونوعا من الحنكة التى هى حصيلة تدريبات ذات طابع خاص وممارسات مطولة ، وكان من نتاج نهضة محمد بن عبدالرحمن الثانى هذا العلمية التحركات المتواصلة للعلماء ، والرحلات

---

(١) الدكتورة / سناء محمود الوكيل – الدولة الأموية فى المغرب ص٢٩٧ – ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
(٢) الدكتور / السيد محمد رزق – الأندلس فى ظل حكم بنى أمية ص١٢٧ .

المستمرة من المشرق الإسلامى للمغرب بغية الاستقرار الذى يعيشه أهل المغرب فى مقابل التطاحن والصراعات التى يعيشها أهل المشرق الإسلامى أبان تلك الفترة[(١)] ، مـن عمـر الدولة الإسلامية .

غير ان رحله بعض أهل الأندلس للمشرق الإسلامى طلبـا للعلـم ، أو الـتزود مـن مصادر الشريعة أو التعرف على غير ذلك من الجوانب التى تحتاج المزيد مـن الترحـال قد تم على نحو ما ، وان كان بشكل اقل من رحلة بعض أهل المشرق إلى المغـرب ، ألا أنه قد أثر فى تقدم الحضارة ، وبخاصة ذلك النوع من الرحـلات العلميـة التـى قـامت على ذلك الفرض نفسه .

ولا شـك أن أهـل المغـرب لم يكونـوا يطمعـون الا فـى العلـوم والمعـارف ، وليـس الإستقرار فقط ، إذ أن الشغف للعلم الدينى ، والتطلع للمعرفة التى حث عليها الشـرع الحنيف يجعل صاحبة يرى المعاناة منحة ، والجهاد فى سبيل العلم راحة[(٢)] ، ومن ثم فقد بات أن الرحلات التى تمت سوف تؤتـى ثمارهـا إذا امتـد بـها الأجـل ، ونعمـت بألوان الرعاية ، أما إذا أهملت فإنها سوف تتضاءل وربما تصل حد التلاشى .

إذن ظهر خلال تلك الآونة بعض العلماء فى الكثير من المعارف الإنسـانية لكنـها لم تكن عميقة واسعة فى كل الأحيان بقدر ما كانت سطحية ضيقة فى البعض الأخر ،

---

(١) كان العالم الإسلامى كله وحدة متكاملة يقيم المسلم فى اى جزء منه فتكفله الدولة ، وتجرى عليه ما يحتاج اليه أرزاق ، وكانت العملة المتداولة واحدة ، فلم يكن المسلم بحاجة إلى جواز سفر أو تحقيق شخصية فضلا عن السماح بالدخول لذلك البلد الإسلامى أو الخروج منه ، لأن الإسلام هو البطاقة الصحيحة وجواز السفر العالمى ، ورحم الله أهل الإسلام ، وكم نأمل أن يعود ذلك النظام كما كان حتى يعم النفع وتتحقق الفائدة ، وما ذلك على الله بعزيز .

(٢) الدكتور / محمد عبدالعظيم الناجى - اثر الإسلام فى الأندلس ص١٢٥ .

وأنها ظلت فى حاجـة إلى ألـوان المساعدات التى لابـد منـها حتـى تصـل إلى العمـق والانتشار ، فى نفس الوقت لم تكن بلاد الأندلس على يقين من علم الغيب الذى يخفى بأعماقـه الكثير لهـا مـن أنـواع التقـدم وعوامـل النهضـة الرائعـة فـى كافـة الجوانـب الاقتصادية والثقافية ، بجانب الإبداع الفكرى[1] ، والعمق العلمى الذى سيأتى كله على أكتاف فارسها المنتظر الذى يعيد أمجاد عبدالرحمن الداخل وهشام ابنه ، ويزيد عليهما حتى يكون هو معلم مـن معـالم الحضـارة الإسـلامية فـى الأندلـس أبـان القـرن الرابـع الهجرى كله ، ذلكم هو الفارس النجيب "عبدالرحمن الثالث ٣٠٠-٣٥٠هـ" صـاحب الخلافة المتميزة والإمارة المنفصلة عن الخلافة العباسية .

(٤) عصـــر الخلافـــة المســـتقلة

ولى عبدالرحمن الثالث إمارة الأندلس ٣٠٠هـ / ٣٥٠هـ وكان طموحا يحمل بين جنباته أمال آبائه وأحلام أحفاده ، وأمنيات كـم طـاقت مغـردة بحنايـا فـؤاده ، فلمـا أتيحت له فرصة اعتلاء العرش على تلك البلاد وجدها سـانحة للتعبيـر عـن مكنونـات فؤاده ، وما بقى إلا أن يبادر بالتنفيذ ، تلفت إلى علاقة الأندلـس بالخلافة الإسـلامية فى بغداد فألفى العرى بينهما منفصمة[2] ، إذ لا توجد علاقة – من الناحية الفعليـة – تربط بينهما ، وان وجدت فى البداية من الناحية الشكلية حتى تولى عبدالرحمن الثالث الإمارة .

(١) الدكتورة سناء محمود الوكيل – الدولة الأموية فى المغرب ص٣٠٧ .

(٢) يذهب المورخون إلى أن سقوط الخلافة الأموية فى المشرق الإسلامى قطع الروابط بينها وإمـــارات المغـــرب الإسلامى ، وبخاصة أبان حكم إقامة الخلافة العباسية فى بغداد – راجع الدكتور السيد محمد رزق – الأندلـس فى ظل بنى أمية .

ثم نظر إلى الدولة الفاطمية بتونس ٢٩٦هـ فوجدها ليست أعلى منه فى الأندلس شأنا ، كما أنها ليست أكثر منه قوة ، وانهم تنادوا بالخلافة الإسلامية فى تونس ، والفاطميون من وجهة نظره أقل شأنا من الأمويين ، أليس الأمويون هم الذين قضوا على رموز الفاطميين – الحسن والحسين – ومع ذلك أعلنت الدولة الفاطمية الاستقلال عن الخلافة العباسية[1] ، فصارت هناك خلافتان ، ومن السهل إذن أن توجد خلافة ثالثة إسلامية أيضاً .

كما تلفت إلى الخلافة العباسية الأم فى بغداد فلاحظ أنها فى عمق الصراع واقعة تحت أقدام الاختلاف والتنازع الذى يحيكه الخلفاء والأمراء حتى بات من المؤكد احتواش الضعف لها والتفافه حولها ، والدلائل كلها قائمة على أن معالم الانهيار لها قد عملت فى بنائها كل ما أمكن ، وما بقى الا إعلان السقوط والانهيار لها ، فلماذا يتبعها أو يتمسك بها ؟

فى نفس الوقت فإن عبدالرحمن الثالث هذا وجد أنه يتمتع بمظاهر الإكرام ، وتحيط به معالم الاحترام والتعظيم ، فبلاطه فخم المظهر ، وقوته الاقتصادية والعسكرية صارت – فى فترة وجيزة – ٣٠٠-٣١٦ – قوة متينة أعلى من كل ما حولها بل أكثر قوة ومتانة فما فى الخلافة العباسية والفاطمية التى كانت قائمة بتونس آنئذ[2] ، وكلما قاس خلافة منهما بما يتمتع به هو ألفاها أقل شأنا وأضعف قوة ، فصارت الأمور بالنسبة له محسوسة لصالحه ، فماذا عليه أن ترك التبعية الإسلامية للخلافة العباسية ؟!

(١) الأستاذ / عبدالباسط محمد الأحوط – تعدد الخلافات فى الأندلس أدى لسقوطها ص٢٣٧ .

(٢) الدكتور / مصطفى محمد صبرى – الأندلس الإسلامى جـ٢ ص١١٥ – الطبعة الأولى ١٩٥٢م .

من ثم فإن عبدالرحمن الثالث أعلن الخلافة المستقلة فى الأندلس وبويع بها ، ولقب بالناصر لدين الله ، معتبرا أن الخلافة فى الأندلس لا تقل قوة ومهابة عن قوة أى من الدولتين – العباسية فى بغداد والفاطمية بتونس – كما ان حكومة الأندلس أولى بالتعبير عن الخلافة الإسلامية قبل أى منهما إذ هى أقدم عهدا وأرسخ قدما وأوثق نظاما[١] ، وأن الخلافة فى بنى أمية سابقة عليها وجودا فى العباسين والفاطميين ، فاعلان الخلافة المنتقلة بالنسبة للثالث فى الأندلس يمثل نوعا من استرداد الحق السليب الذى أجبر أهله على التنازل عنه[٢] ، بعد أن غلبهم عليه العباسيون ، وكان من قبل فى أيدى الأمويين .

وينقل العلامة ابن عذارى المراكشى صاحب البيان فى المغرب منشور الخلافة الصادر عن عبدالرحمن الثالث ومما جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم ، أما بعد ، فإن أحق من أستوفى حقه ، وأجدر من أستكمل حظه ... فنحن للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرنا فيه ورفع سلطاننا اليه ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، إلى أن يقول ....

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين[٣] ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل عليه ، ومتسم بما لا يستحقه

---

(١) الشيخ منصور فتحى بن الشيخ – دراسات فى نظام الإسلام بالأندلس أبان حكم بنى أمية ص١٥١ .

(٢) باعتبار أن الخلافة الإسلامية كلها كانت فى ايدى بنى أمية اعتبار من عام ٤٠هـ مع معاوية بن أبى سفيان ، وظلت فيهم حتى خرجوا منها مطرودين فى نهايات الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة .

(٣) يقصد فى المراسلات التى تتم بين الدول والأفراد أيضا ما دامت متعلقة بالأمير نفسه .

منه[١] ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه[٢] ، فمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله والله المستعان »[٣] ، وهو بهذا قد أعلن الخلافة المستقلة وخطفه فى المحافظة عليها .

ومن نافلة القول ان عبدالرحمن الثالث هذا كان صورة متطورة من جده عبدالرحمن الداخل الذى أسس دولة بنى أمية بالأندلس عام ١٣٨هـ ، فقد كان الثالث قويا فى شخصيته ، متسما بسعة الأفق ، مستقلا عن التبعية أو التقليد فى التفكير ، نمت مشاعره ، كما تنمو المشاعر التى تصنع قادة الأمم على حب العلم والتمسك بالمعرفة والانصياع لمعطيات البراهين[٤] ، باعتبار ان الجهل ذل واستعباد وظلام . أما العلم فهو معارف وتحرر وأنوار ، بالعلم تنهض الأمم وتزدان الممالك وتبدو حوالك المسالك ، وبالجهل يقع العكس .

فلما أعلن الاستقلال بالخلافة فكانت هذه هى الخلافة الثالثة فى الدولة الإسلامية الواحدة[٥] ، وقد أحتاج عبدالرحمن الثالث إلى ما يوطد حكمه ويشبع نوازعه ، ويقوى أركان خلافته الحديثة ، فكان هو العلم الشامل ، من ثم حاول

---

(١) هو بهذا يسلب لقب الخليفة عن كل من العباسين فى بغداد ، والفاطميين بتونس ، ويجعله منحصرا فى بنى أمية بالمغرب الإسلامي وحدهم .

(٢) كأنه يحاول تدارك أمجاد بنى أمية السابقة ، ويركز عليها ويسقط من حسابه الفترة التى تلتها .

(٣) العلامة - ابن عذارى المراكشى - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ٢ ص٢١٢ - تحقيق ليفى بروفنسال - دار الثقافة بيروت - والمنشور مؤرخ بكتابته يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة عام ٣١٦هـ .

(٤) الشيخ / عبدالباقى محمود رسلان - عبدالرحمن الثالث وأثره فى نهضة الأندلس - ط الرحمانية عام ١٩١٧م .

(٥) كانت الأولى فى بغداد عباسية ، والثانية فى تونس فاطمية ، وهذه الثالثة فى الأندلس أموية مغربية ، وكلها كانت فى وقت واحد قائمة على سبقها فى بعضها وتأخرها فى الأخر ، مما أدى إلى إضعاف الدولة الإسلامية فى مواجهة الخصوم المتحدين .

استقطاب نوابغ العلماء من أهل المشرق الإسلامى ، ومهد لذلك الاستقدام بما يضمن له تحقيق رغبته ، مستخدما جزيل العطاء ، مذكرا بأن نشر العلم الإسلامى فى الأندلس من باب الجهاد فى سبيل الله[١] ، معلنا اتساع صدر الخلافة فى الأندلس لكل الآراء الصحيحة فى كافة العلوم الإنسانية بجانب الدينية ، وعلى كل المعارف أيضا .

حينئذ سارع بعض نوابغ أهل المشرق الإسلامى ممن ضاعت بهم صدور الحكام هناك إلى تلبية رغبات خليفة الأندلس الجديد وقاموا بنشر ثقافاتهم بين ربوع البلاد كلها ، متخذين لذلك الوسائل التى رأوها مناسبة فى نشر تلك العلوم التى هى حصيلة اجتهاداتهم العقلية ، ومعبرة عن ثمرات تفكيرهم الخالص[٢] ، حتى كانت خلافته الجديدة بالأندلس منافسا قويا فى ألوان المعارف والعلوم والفنون تضارع الخلافة الإسلامية التليدة بالمشرق الإسلامى أو تزيد عليها وتعمل على المزيد من السبق لها والتفوق الدائم عليها .

وحتى يضمن عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله بقاء الحركة العلمية نشطة فى خلافة الأندلس وضع خطة تأمين لهؤلاء العلماء على عقولهم وأجسادهم وأموالهم بجانب ذويهم ، أما أفكارهم فقد أعلن الرجل أنه لا حجر على فكر ، ولا حظر على حرية رأى[٣] ،وفى نفس الوقت فإنه كان قد وضع أسس الأمن وتابع خطوات الآمان بنفسه فى ربوع البلاد حتى وقعت الطمأنينة بين الناس موقعها ، فأمنوا على عقولهم وممتلكاتهم بعد عقيدتهم وعبادتهم ، كما أمنوا على أنفسهم ومتعلقاتهم ، وذلك من

---

(١) الدكتور / مصطفى محمد صبرى - الأندلس الإسلامى جـ٢ ص١٣٧ .

(٢) الشيخ عبدالباقى محمد رسلان - عبدالرحمن الثالث وأثره فى نهضة الأندلس ص١٥٧ .

(٣) ونعم ما فعل فقد أعطى الأمان للعقول حتى تبحث بجد وتحاول الدخول إلى العلوم المختلفة فى شيء من الأمان الذى كان مفتقدا لدى من سبق .

الأسباب والدوافع التى تهيئ العقول حتى تقود الحركة العلمية وتدفعها للنشاط المتزايد .

كما أن قوة عبدالرحمن الثالث تكمن فى شخصيته ، وتمكنه من ألوان الثقافة والمعارف ، وتعدد علاقاته الاجتماعية ، وتوثيق روابطه السياسية والثقافية وذلك كله قد مكن للرجل فى نفوس أصدقائه الذين عرفوا ميوله للثقافة والمعارف فبادر بعضهم بإهدائه مجموعات من الكتب العلمية المتعلقة ببعض الجوانب فى علوم الطبيعة والنبات والطب والفلك والرياضة والموسيقى[1] ، وغيرها من العلوم التى كانت موجودة فى المشرق الإسلامى أو غيره من البلاد الأخرى .

ويذهب الكثيرون من المؤرخين إلى أن عصر عبدالرحمن الثالث هو عصر استكمال الحركة الفكرية الذى بلغت فيه أرقى صور التطور العلمى والنضج العقلى الذى استمر فى القرن الرابع كله مما يعتبر بحق أزهى عصور العلوم والآداب فى الأندلس الإسلامى ، وبروز النوابغ من العلماء والشوامخ من الأدباء والشعراء[2] ، إذ أن عبدالرحمن الثالث هذا استطاع القضاء على الفتن والدسائس التى كانت سائدة قبله ، وإخماد الثورات التى كانت تظهر حينا ثم تختفى وتعاود الظهور والاختفاء ، ولكنه قضى عليها تماما بالطرق التى رآها تبلغ به مقصده ، ولا تحرك الشعور العام ضده .

وبالتالى فقد استتب الأمن فى عهده أكثر من ذى قبل ، واطمأن الناس على أنفسهم وأموالهم غاية الاطمئنان ، فانصرفوا إلى منابع الثقافة بغرض التعرف الدائم لها والتزود منها والأخذ بأسباب الحضارة فى جانبيها الثقافية والمدنية والاكتساب للعلوم

(١) الدكتور / محمد عبدالعظيم الناجى – أثر الإسلام فى الأندلس ٢١١ .

(٢) الشيخ / عبدالباقى محمود رسلان – عبدالرحمن الثالث وأثره فى نهضة الأندلس ص١٧٧ .

والمعارف بجد وإخلاص ، وذلك كله يؤدى إلى نهضة علمية فى شتى الميادين التى يتعرض لها من غير أن يتقيد بنوع ما من المعارف[١] ، أو يحجر على معارف الآخرين ، أو حتى يجحد للرأى الأخر وجهه ، أو يحاول التقليل من قدره ، يستوى فى ذلك الخليفة والأجير ، إذ لا فرق بينهما فى تناول المعارف الإنسانية والالتزام بها .

وهكذا نرى أن المسلمين فى الأندلس أبان تلك الفترة - خلافة عبدالرحمن الثالث - قد انصرفوا نحو العناية بالعلوم العقلية والنظرية ، ولم يقنعوا بما وصل اليه إخوانهم فى المشرق الإسلامى من تقدم فى بعض العلوم والمعارف ، بل زادوا عليها وأضافوا اليها بما ابتكروا وجدوا فى الوصول اليه مما أتاح لأوربا توفير مورد عربى إسلامى استساغت شرابه فيما بعد ، فظلت تنهل منه حتى أقامت نهضتها عليه ، وان كانت لم تعلن عنه صراحة[٢] ، إما عنادا ولجحا أو كبرا وحسدا[٣] ، وذلك لا يقلل من أهميته فى نفوس المنصفين منهم وهم قليل .

إذن الحركة العلمية والثقافية والفكرية فى عصر الخلافة المستقلة أبان حكم عبدالرحمن الثالث ٣٠٠-٣٥٠هـ قد نالت قدرا كبيرا جدا من العناية السياسية والدعم المادى والأدبى ، كما أنها قد تقدمت بشكل كبير وتطورت بسرعة مذهلة ، إذا قورنت حركتها فى القرن الرابع بالقرنين اللذين سبقاها - الثانى والثالث - بحيث يمكن القول : « بأن الحركة العلمية طوال القرنين الثانى والثالث كانت بطيئة تحبو حينا ،

---

(١) باعتبار أن المعارف الإنسانية قاسم مشترك بين العقول جميعها ، أما المعارف الدينية فهى مأخوذة من النصوص الدينية واجتهادات مفكرى الإسلام حولها .

(٢) الدكتور / عبدالمنعم حامد المرسى الصاوى - معالم الحضارة الإسلامية فى الأندلس ص٢٠٧ - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

(٣) عرضنا فى هذا الشأن لمحات - راجع كتابنا : قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة ، وكذلك كتابنا : خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة .

ويظهر بعض المشتغلين بها حينا أخر ، حتى كان القرن الرابع فاشتد الطلب على الكتب الفلسفية بجانب العلمية »[١] ، وكثرت الرحلات العلمية فظهرت الأفكار الجديدة الناضجة مما كان له أثره البارز فى قيام النهضة العلمية بالأندلس الإسلامى فى غضون تلك الفترة .

فلما مات الخليفة عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله تولى الخلافة بعده ابنه الأمير الحكم المستنصر بالله ٣٥٠-٣٦٦هـ ، وكان له ولع شديد بالعلوم والمعارف منذ أيام أبيه الذى كان يشجعه عليها ويدفعه اليها ، حتى أنه كان يؤثر أصحابها ، ويقدمهم على غيرهم فى مجالسه وتعاملاته باعتبار أنهم أصحاب النهضة العلمية التى ستقوم عليهم باعتبار أنهم الذين يستعملون عقولهم وعصارة أفكارهم أكثر مما يستعملون حوافظهم ، وأنهم عند المقارنة بغيرهم يعدلونهم ويتفوقون عليهم ، وكانت وجهة نظره تلك تروق لأبيه الناصر لدين الله ، إذ أنهما يشتركان فى هذا الاتجاه الذى رأياه تنهض عليه الحركة العلمية وفى رحابه تنمو وتتطور .

فلما ولى الأمير الناضج الحكم هذا الخلافة[٢] ، سار قدما فيما كان قد ابتدأه ، واعلن عنه بوضوح ، يذكر المؤرخ القاضى صاعدا بن أحمد الأندلسى أن الأمير الحكم الملقب بالمستنصر لدين الله بن عبدالرحمن الناصر لدين الله قد أنتدب نفسه أيام أبيه إلى العناية بالعلوم وإيثار أهلها ، واستجلب لذلك الغرض من بغداد ومصر وغيرهما من بلاد المشرق الإسلامى عيون التأليف الجليلة والمصنفات الكثيرة الغريبة فى العلوم القديمة والحديثة ...

---

(١) الدكتور سليمان سليمان خميس – نهاية الفلسفة الإسلامية فى المشرق وبدايتها فى المغرب ص٢٢ .

(٢) يذهب البعض إلى أنه ولى الخلافة فى سن الخمسين ، وهى سن ما بعد النضج الكامل للعقلية والرؤية الواضحة للأمور – راجع للدكتور رفقى زاهر " فيلسوف الأندلس ابن رشد " ص٤ الطبعة الأولى ١٩٧٤م .

وأنه جمع منها فى أيام أبيه ثم فى فترة حكمه ما كاد يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة التى حكموها كلها ، وقد تهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم ، وبعد همته فى اكتساب الفضائل ، وسمو نفسه إلى التشبه بأهل الحكمة من الملوك ، فكثر تحرك الناس إلى قراءة كتب الأوائل ، وتعلم مذاهبهم[١] ، باعتبار أنهم أصحاب تراث معرفى أوسع وليس تراثا دينيا فقط ، لما هو معروف من أن الدين هو العماد الوحيد المقام عليه كل المعارف وهو النقل المنزل أيضا ، ومحل الإيمان بالقلب ، فهو إيمان قلبى .

أما تراث الأوائل مما يسعى اليه الناس من المعارف والعلوم فذلك لون من العلوم والمعارف ومحله العقل ، والحاكم فى قبوله أو تركه على الناحية الشرعية هو النقل المنزل[٢] ، أما الحاكم على قبوله أو رفضه من الناحية العلمية فهو التجربة والعقل ، والفرق بينهما كبير جدا ، فالإيمان محله القلب ، وثمرته صحة العقيدة وسلامة العبادة ، والعلم محله العقل ، وثمرته التطور الحضارى فى جانب مادى ، وقد يصاحبه الثقافى أيضا .

إذن عناية هذا الحكم المستنصر بالعلوم لم تأت من فراغ ، وإنما كانت قائمة فى تكوينه الذهنى ورصيده الذاتى أيضا ، إذ كان هو نفسه محبا للعلوم ذاتها ، كما كان طلعة شغوفا ، بالنظر فى الكتب ويهوى التشبه بأهل الحكمة ، ولذلك كانت شخصيته نفسها هى أول العوامل التى ساعدت فى ازدهار الحركة العلمية بالأندلس[٣] - أبان

---

(١) الدكتور / محمد غلاب - الفلسفة الإسلامية فى المغرب ص١٩ .

(٢) الدكتورة / سهام محمد عبدالباقى - الحضارة الإسلامية وأصولها الشرعية ص١٣٥ .

(٣) الدكتور / عبدالمعطى محمد بيومى - الفلسفة الإسلامية فى المشرق والمغرب جـ٢ ص٦٠ - الطبعة الأولى دار الطباعة المحمدية ١٢٩٣هـ / ١٩٧٣م .

تلك الفترة من حكم بنى أمية للأندلس الإسلامى[١] ، ورغبتهم فى خدمة العلم بكافة ألوانه واتجاهاته ، وكان لذلك أثاره الطيبة على الحضارة فى العالم الإسلامى والعربى أيضا .

ويذهب المؤرخون فى تصوير حب الحكم المستنصر بالله هذا للثقافة مذاهب شتى ، قد تتفرق بالناس فى اتجاهات عديدة بعضها يقبل وبعضها فيه الكثير من المغالاة :-

[١] منها أن أغلب الكتب التى كانت قد جمعت فى مكتبته الكبرى قد قرأها بنفسه ، ودون تعليقات له عليها تدل على علمه الواسع ، ودرايته الكبيرة ومداركه المتعددة وثقافته المتميزة ، وأنه رتب لتلك المكتبة الخدم والموظفين تحت قيادة أحد ولاته ، وهو تليد الخصى ، بغرض أن ينتفع بها طلاب العلم والمعرفة ، وعشاق الثقافة المتعددة ، ومحبو العلم من أبناء بلاده الإسلامى[٢] ،وغيرهم من البلدان التى يأتى أبناؤها لذلك الغرض الذى صار أمره معروفا لدى الباحثين والدارسين للعلوم الدينية والثقافية أيضا .

[٢] منها أنه كان قد أنشأ معهد قرطبة العلمى الذى صار فيما بعد جامعة تدرس فيها العلوم المختلفة[٣] ، حتى صارت فى نهاية عهده أكبر جامعات الأرض تقرأ فيها

---

(١) يذهب المؤرخون إلى أنه كون مكتبته الكبرى الجامعة ، وكانت تضم ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف كتاب فى مختلف العلوم ، وأنواع الثقافة ، وأن عدد قوائمها بلغ ٤٤ قائمة ، ليس فيها الا أسماء الكتب وسوف نعرض لذلك بالتفصيل ان شاء الله تعالى فى حينه ، وأن هذه الأربعة والأربعين قائمة كانت مجلدات تحمل أسماء الكتب فقط .

(٢) الدكتور رفقى زاهر - فيلسوف الأندلس ابن رشد ص٤ - الطبعة الأولى ١٩٧٤م .

(٣) الدكتور / عبدالمعطى محمد بيومى - الفلسفة الإسلامية فى المشرق والمغرب جـ٢ ص٦٢ .

العلوم الفلكية والطبيعية والكيميائية[1] ، وغيرها من العلوم التى تجىء من هذه الناحية الثقافية ، بجانب العلوم الدينية أيضا ، فهو لم يهمل العلوم الدينية ، لكنه لم يقتصر عليها وحدها ، وإنما شملها وغيرها وشجع عليهما معا حتى بات أمر الحضارة[2] فى عهده مزدهرا .

[٣] منها أنه كان يلتقى بالعلماء بجانب الأدباء والشعراء ، كما يلتقى بالفقهاء والنبهاء وغيرهم ، وكان يعتقد ذلك مجالس خاصة حيث تدور داخلها المناقشات ، وتكثر اللاحقات العلمية ، كما تبدو فيها المسامرات الأدبية ، ويجرى فيها ملامح الأبحاث الفكرية المختلفة[3] ، مما حدا بعجلة التقدم العلمى الحضارى أن تنطلق بسرعة وفى مزيد من التوثب والأكثر من الثقة مع العمق والرغبة فى الاستقرار .

[٤] وهناك روايات أخرى كثيرة فيها الخيال واضحا إلى حد الإسراف ، مما يجعلنا نتوقف عن ذكرها ، حتى لا يطول الكتاب كثيرا فى موضوعات أو قصص تجرى فيها الأسطورة مجراها الكبير[4] ، ومن ثم فلن نلتفت اليها .

---

(١) الدكتور / رفقى زاهر - فيلسوف الأندلس ابن رشد ص٥ سنة ١٩٧٤م .

(٢) من المعروف ان الحضارة الإسلامية تقوم على جناحين هما :-

[١] الثقافة : وأعنى بها الجانب النظرى من الحضارة ، وهو يتمثل فى النصوص التى تحمى الحضارة وعصارة الأفكار التى تجرى لخدمة النصوص ذاتها .

[٢] المدنية : وهى الجانب العلمى التطبيقى من الحضارة الذى يتمثل فى تنفيذ ما ذهبت اليه النصوص على الوجه الذى يبدو فى النواحى المادية كالعمارة بأنواعها والطب والفلك والطبيعة وغيرها.

(٣) وهى روايات قد لا تسلم من الانتقادات القوية التى يحيط بها الكثير من القبول ، وأن هذه الروايات قد لا يمكنها أن تدافع عن نفسها عند المقابلة بغيرها .

(٤) الأستاذ / عبد الحميد محمد طلبه - دراسات فى أدب الأندلس ص٢٤٥ .

ونحن لا نشكك في تلك الروايات التي ذكرت من قبل الا أننا نرى المغالاة تجرى أغلبها مما يخرج بها عن حد القبول ، لأن مدة ولاية الحكم المستنصر بالله هذا كانت قرابة ست عشر سنة ٣٥٠/٣٦٦هـ ، وهي مدة قصيرة ، فإذا قسمنا مجموع ما ضمته المكتبة ، وهو ٤٠٠,٠٠٠ على مدة حكمه ، وهي ١٦ سنة كان الناتج منه ٢٥٠ ألف كتاب في السنة الواحدة[١] ، وذلك مما يجعل تصديق تلك الروايات من أنه كان يقرأ تلك الكتب ويعلق عليها أمرا على فيه شيء من الصعوبة ، لأن ذلك معناه أنه كان يقرأ في الشهر الواحد قرابة ٢٠٨٣ ألفين وثلاثة وثمانين كتابا تقريبا ، وأنه كان يقرأ في اليوم الواحد تسعة وستين كتابا تقريبا بواقع كتابين ونصف في الساعة الواحدة ، وهو أمر غريب ومستبعد حتى لو كان يقرأ على شبكة الإنترنت المعلوماتية في العصر الحديث .

في نفس الوقت فإن أعباء الخلافة ، ومتابعة أحوال الرعية قد لا يمكنان الحاكم مهما كان شأنه من متابعة تلك الأمور ، أو القيام بها على النحو الذى ذكرته الروايات الغالية في بيان رغبته في العلم ، فضلا عن الالتقاء المتكرر بالعلماء ومجالس الشعراء ، ولو أقتصر المؤرخون على ذكر أنه كان محبا للعلم بدرجة كبيرة وله فيه بعض الإسهامات . وكان عونا للعلماء . وقادرا على تحجيم نفوذ الفقهاء[٢] ، وتوجيه نزعاتهم إلى الناحية الأكثر سهولة ، مع تدعيم الاتجاهات العلمية بالمكتبات والكتب العلمية

---

(١) بل أن الضرورة العقلية قد لا تقبله ، لأن الثوان التي ستجرى هي أقل عددا من صفحات الكتب التي يظن أنه قرأها في اليوم الواحد ، ولهذا نبهت على تلك الناحية .

(٢) حيث كان يذهب إلى ضرورة وقوف الفقهاء بعلمهم عند نقطة الإفتاء وممارسته ، أما التدخل في شئون الحكم والثقافة فذلك ليس لهم الحق في ممارسته ، ومن ثم أبعدهم عنه ، ولما حاولوا الدخول اليها عاملهم بالقسوة والعنف .

العلمية التى حرص على استقدامها إلى الخلافة الإسلامية بالأندلس ، لكان ذلك أمرا لا منازعة فيه ، وقبوله يكون أيسر من مناقشته ورفضه .

غير أن هذه النهضة العلمية التى نمت فى عهده لم تلبث أن جوبهت بالمفاجأة التى لم تكن تتوقعها بتلك الناحية ، إذ مات راعيها الداعم لها الحكم المستنصر لدين الله . وبات أمر الخلافة بعده قلقا ، فآلت إلى أخيه المغيرة الذى لم تكن لديه النزعة فى الولاية أو القدرات التى تعينه على القيام بذلك الدور . فتآمر عليه أحد موالى أبيه ، ودبر له فى سرعة مستغلا ضعف شخصيته ، وعدم قدرته على الغوص فى أعماق الناس ، بجانب تطلع ذلك المتآمر إلى الوصاية على العرش أن خلى بموت المغيرة هذا ، وفعلا تمكن من الفتك به من ليلته[1] كما يقال .

ولم يقدر للمغيرة أن يختبر فى قليل أو كثير . فكانت الفاجعة قائمة فى مصيبتين : الأولى فى راعى النهضة العلمية الذى فارقها قبل أن يبلغ بها فأمنها أو يصل بها إلى حد النضج التام . والثانية فى أخيه المغيرة الذى كان متوقعا له أن يقوم بدور أخيه أو استكمال ما بدأه فى الحضارة القائمة والنهضة التى انطلقت ، وتحتاج المزيد من الرعاية .

ومن الطبيعى أن يؤول أمر الخلافة بحكم التوارث فى بنى أمية للفتى الصغير هشام بن الحكم[2] ، الذى لم يعرف شيئا عن أمور الخلافة . وكان بحاجة إلى وصاية عليه غير معلنة قام بها قاتل عمه المغيرة ، وهو فى نفس الوقت كان مولى أبيه الحكم الناصر لدين الله ، ويدعى ذلك المولى بأبى عامر محمد بن عبدالله القحطانى ، الذى

---

(١) الدكتور / رفقى زاهر - فيلسوف الأندلس ابن رشد ص٥ ص١٩٧٤ .

(٢) ولى الخلافة اعتبارا من ٣٦٦هـ ، وكان غلاما لا يعرف شيئا عن إدارة الخلافة ، مما هيأ لمولى أبيه أن ينقلب عليه فيصير هو الحاكم الفعلى بينما هشام هو الرسمى أو الاسمى ، وكان لذلك أثره السلبى على بنى أمية .

لقب بالمنصور ، وهو الذى انفرد بالسلطة وحده[1] ، وراح يدبر المؤامرات التى كان لها الأثر السلبى فى نفوس العامة والخاصة .

وبهذا انتهت مرحلة مهمة من الاستقرار والطمأنينة لتحل بدلا منها مرحلة انقسام فى الرأى وتفرق فى الهدف ، وانطلاق نحو بلوغ الوصول إلى كرسى الحكم ، فكان من نتائجها انقراض بنى أمية كخلافة وخليفة فعلية وشكلية ، وتحويل الأندلس الإسلامى الهادئ إلى ساحة من الفوضى واقعة تحت طوائف صغيرة متطاحنة لكل منها ملك أو أمير ، ولها ظروف خاصة وملابسات قائمة ، وكل ذلك لا يعين على إتمام النهضة العلمية والنهوض بها ، كما لا يساهم فى المحافظة على التوجهات الثقافية[2] ، بحيث تكون ثوابت لمزيد من الانطلاقات الفكرية والعقلية .

مما أثر بشكل أو أخر على الحركة العقلية والفكرية فى بلاد الأندلس مع مطالع القرن الخامس الهجرى ، وبخاصة بعد الفوضى التى سادت الأندلس عقب تغلب المنصور ابن أبى عامر على هشام بن الحكم حتى صارت له القيادة الفعلية[3] ، والذى يسميه المؤرخون بالدولة العامرية نسبة إلى الإجراءات التى أتخذها أبن أبنى عامر فى الخلافة الأموية فكانت نهاية تلك الخلافة على يديه ، وعرفت باسم الدولة العامرية فى الأندلس ، وسوف نلتفت اليها فيما بعد .

على كل حال فإن عبدالرحمن الثالث ٣٠٠/٣٥٠هـ والحكم المستنصر ٣٥٠/٣٦٦هـ قد أقاما نهضة علمية وثقافية ظهرت فيها النقلة الحضارية فى أرقى

---

(١) الدكتور / بدير عبد الوالى بن عبد الكبير – الأندلس والدولة العامرية ص٧١ - ط الرباط سنة ١٩٥٢م .

(٢) الأستاذ / على عبداللطيف – القيادة العامة قواعد وأصول ص١٥٣ – ط أولى – سنة ١٩٦١م .

(٣) الدكتور / محمود حسن سالم – الدولة العامرية فى الأندلس ص٧٥ .

صورها ، مما جعل الخلافة فى الأندلس محل الاحترام والتقدير من جانب الأنظار المتلهفة للعلم والحضارة ، بل وصارت تلك الخلافة فى المركز الذى دفع بالدول الأوربية إلى محاولة كسب تأييدها لها ، والعمل المستمر على التوادد والتواصل معها سياسيا وحضاريا واقتصاديا كذلك .

فى نفس الوقت فإن البعثات العلمية للطلاب والأساتذة من أوربا قد كثرت فى التوجه إلى الأندلس الإسلامى[1] ، حتى يقبسوا من العلوم والمعارف التى نقلها مسلمو الأندلس عن مسلمى المشرق الإسلامى ، كنتيجة للنظر المتواصل ، وكذلك الأبحاث المركزة التى قام بها علماء الإسلام حول المفاهيم العلمية وقد أمكنهم التعرف عليها من النصوص الدينية الإسلامية - النقل المنزل - بجانب ما سبق التعرف عليه لدى مفكرى المسلمين الأوائل باعتبارها أرصدة ثابتة ومكونات ذهنية قائمة .

إذن صارت قرطبة الإسلامية عاصمة النور الذى تبحث عنه أوربا كلها سواء فى النواحى العلمية والفكرية التى راحت الوفود الباحثة عنه من بلاد أوربا وغيرها تنتقل بآمالها وأحلامها اليها طالبة اكتساب العلوم والمعارف والثقافات المختلفة ، سواء فى النواحى الطبية للتداوى والعلاج كمنتجع طبى ، أو أكاديمية تعليمية ، أو فى النواحى الإنشائية المتعلقة بفنون العمارة والحفر وتمهيد الطرق ، وشق الترع[2] ، وحفر الأنفاق والقنوات إلى غير ذلك من النواحى المتعلقة بهذا الجانب الحضارى .

ومن المؤكد أن خلافة كهذه يستقر أمر الأمن فيها على النحو الذى سلف القول به ، ويرعى الخليفة بنفسه علماءها ، وينهض بيت مال المسلمين للقيام بتمويل تلك

---

(١) الأستاذ / حامد محمد عبدالباقى - أثر المسلمين فى الأندلس ص٢٩٣ - ط ثانية ١٩٤٣م .

(٢) الدكتور / على الدين عبداللطيف - دراسات فى تاريخ الأندلس الإسلامى جـ١ ص٩٨ .

الأبحاث العلمية التى يقوم العلماء بها ، حتى تخرج إلى النور فى النواحى المنوطة بها على جانب تطبيقى ونظرى ، سوف يأتى ذلك له بخير على تلك البلاد ، وينهض بالعقول حتى تبذل قصارى ما فيها من طاقة وإبداع ، فتخرج المعارف منها على أوسع ما يتوقع لها من ذيوع وانتشار بجانب العمق والدقة فى الأفكار ، وهو الحال الذى كانت عليه الخلافة الإسلامية فى الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجرى .

(٥) عصر الدولة العامرية ٣٦٦/٤٠٠هـ[1]

تغلب أبو عامر محمد بن عبدالله القحطانى أحد موالى الحكم المستنصر بالله هذا على هشام بن الحكم كما سلف القول به ، ثم لقب نفسه بالمنصور ، وهو أحد ألقاب خلفاء بنى أميه ، وصار يعرف به ، ولم يكن ابن أبى عامر محبا للعلم أو العلماء بالقدر الذى كان لهم أيام عبدالرحمن الثالث أو ابنه الحكم المستنصر ، كما كان فى صدره شيء من أهل العلم باعتبار أنهم كانوا فى خلافة الثالث وأبنه أهل الحظوة ، ونالوا من عناية الحكم المستنصر ما لم ينله حاجبه ابن عامر هذا نفسه ، الذى ولاه أمرا مهما فى الخلافة ، بحيث يكون هو الواسطة بين الخليفة والوزراء طبقا لما هو معروف عن الحجابة ونظامها فى بنى أمية[2] ، الذين أتقنوا اصطناع ذلك النوع من الإدارة والسياسة معا ، وكانت لهم فيه قفزات كبيرة .

---

(١) ويعتبره الكثيرون من المؤرخين تكملة لعصر الإصلاح على أيدى الداخل وخلفائه ، بينما يذهب آخرون إلى أنه مخالف تماما لما كانت عليه الأمور على الثالث والحكم ابنه من بعده ، ولك وجهة .

(٢) الحجابة مركز سياسى تغيرت قيمته علوا وانخفاضا بتغير التوجهات السياسية فى بنى أمية ، لكنه فى الأصل قام على مفهوم أن يكون هذا الحاجب واسطة بين الخليفة - الذى لا يتسع وقته - وبين الوزراء الذين تكثر أعدادهم والمصالح المتعلقة بهم ، فهى منصب قد يساوى رئيس الوزراء فى بعض الحالات ، أما فى حالات أخرى ، فكان الحاجب هذا أقرب شبها بمدير مكتب الرئيس مثلا ، وسكرتيره فى حالات ثالثة - راجع فى هذا الشأن معالم الحضارة الإسلامية فى الأندلس للدكتور / عبدالمنعم حامد المرسى .

في نفس الوقت فإن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن ابن أبي عامر هذا كان يتميز بشيء من الدهاء الخلقي لا العلمي[١] ، بجانب وجود تراكمات من السلبيات الموجودة في صدره[٢] ، بدليل أنه أبان حكم المستنصر بالله كان خادما مطيعا ، ومن العمال الذين لم يقصروا في إظهار الصورة الجميلة للخليفة الأموي ، وأنه أبدى كل مظاهر الاحترام والتوقير له بجانب القسم المتواصل المتكرر على الوفاء للخلافة الأموية بالأندلس مهما كانت النوازع أو الطموحات ، أو ضغوط الإغراءات ، وكان ذلك قائما طيلة خلافة الحكم نفسه .

فلما مات الحكم انقلب الرجل على الخلافة كلها في شكل درامي بمجرد تمكنه من أسباب ذلك الانقلاب ، حيث دبر لقتل المغيرة أبان الاستعداد لمراسيم دفن جثمان الحكم ، ونفذ القتل والاغتيال مباشرة عن طريق وسائط وبدائل قاموا به بأسرع ما يمكن حتى لا يتمكن أحد من ضبط الأمور بعد المغيرة[٣] ، ثم تغلب على أراء هشام بن الحكم حتى لم يعد له وجود في أمر الخلافة ، وصار ابن عامر هذا هو الحاكم الفعلي ، وكان الوفاء بالقسم الذي تعاهد عليه يلزمه الولاء لمن اختاروه وفي منصب دقيق من خلافتهم وضعوه ، وفي أزمان بعينها أعانوه .

أما أن ينقلب ابن أبي عامر على نظامهم كله ويقتل أنسالهم ، ويلقب بنفسه بألقابهم – حيث لقب نفسه بالمنصور – ويقيم لنفسه دولة تحمل اسمه على أنقاض

---

(١) الدهاء الخلقي منقصة ونوع من السلبية ، أما العلمي فإن صاحبه يبحث ويجتهد في تقدم المعارف ، التي يتمكن منها ، حتى يبلغ فيها القدر الأعلى بما يخدم مصالح بلاده والدول المتعاملة معها .

(٢) الدكتور / بدير عبد الوالي عبد الكبير – الأندلس والدولة العامرية ص١٧ .

(٣) أنا لا أسمح لنفسي اتهام مسلم بتدبير القتل والاغتيال لمسلم ، ولكني أذكر روايات المؤرخين وحسابهم على الله

أصولهم فذلك من العلامات البارزة على أن الرجل كان داهية فى الأخلاق السلبية ، ولم يكن داهية فى العلم والوفاء[١] ، بحيث يتمكن من قيادة الأمة المسلمة نحو الخير الذى شرعه الله تعالى ، وما أظن الخير المشروع يأتى على يدى من استغل عـوارض الظـروف فدبر وقتل من كانَ أبوه أكبر أسباب نعمته بعد الله تعالى ثم تغلب على الصغير أيضا .

فى نفس الوقت فإن بعض المؤرخين قد يذهبون إلى أن المنصور بن أبى عامر هـذا أراد أن يكسب أصوات الفقهاء إلى جواره ، باعتبار أنهم بفتاواهم ومواعظهم الطريق إلى قلوب العامة فأعلن تحريمه لدراسة العلوم العقلية ، وبخاصة الفلسـفة التـى مـا كـانت تنال احترام الفقهاء ، بل يقع عليها ضيق الفقهاء وسخطهم ، وكذلك فعل نفس الشيء بالكتب التى لا تروق لبعض الفقهاء[٢] ، وهو الذى لم يفعله من قبل الا المنصور هذا .

ويحكى مؤرخ الأندلس القاضى صاعد[٣] هذا الذى جرى من المنصـور عـن الكتـب التى جمعها عبدالرحمن الثالث والحكم وأسبابه ، فقال : فأحرق المنصور بعضها وطرح بعضها فى أبار القصر ، وهيل عليه التراب والحجارة ، وغيرت بضروبه من التغايـير ، وأنه قدم ذلك تحببا إلى عوام الأندلس ، وتقبيحا لمذهب الحكم عندهم ، إذ كانت تلـك العلوم مهجورة عند أسلافهم مذمومة بألسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهما عندهم بالخروج من الملة ومظنونا به الإلحاد فى الشريعة[٤] .

---

(١) الدكتور / محمود حسن سالم – الدولة العامرية فى الأندلس ص٨١ .

(٢) الدكتور / رفقى زاهر – فيلسوف الأندلس ابن رشد ص٧ .

(٣) هو القاضى صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن صاعد القاضى الفلكى الاندلسى ، ولد بالمرية ، وهو قرطبى ولى قضاء طليطلة ، وظل فيه حتى توفى عام ٤٦٢هـ/١٠٠٧م ، وهو مؤرخ وبحاثة ، ومن كتبه فى هذا الجانب صواب الحكم فى طبقات الحكماء ، جوامع أخبار الأمم فى العرب والعجم ، مقالات أهل الملل والنحل ، إصلاح حركات النجوم ، طبقات الأمم وغيرها كثير مما صحت نسبته اليه .

(٤) القاضى صاعد – التعريف بطبقات الأمم ، وهو المشهور بطبقات الأمم ص٧٦ .

ويذهب بعض الباحثين إلى ان أبا عامر محمد بن عبدالله القحطاني هذا كان يشعر بأنه متغلب على حكم ليس له في الأصل فأراد أن يدعم سلطته ويتقرب إلى الناس حتى يسترضيهم ، ولعله تلقى فتوى - كما يقال - من بعض الفقهاء بأن الطريق إلى استرضاء الفقهاء وعامة الناس أن يحرم الفلسفة ، فعمد هذا الحاجب إلى الكتب التى أنفق الحكم الثانى فى جمعها وفهرستها ماله وعمره ، فأخرج ابن أبى عامر منها بمحضر من أهل العلم والدين - كتب الحساب والطب ، ثم أعدم الباقي[1] ، الذى حكم الفقهاء وبعض من أهل العلم بأنه لا مصلحة فيه ، كما أفتى الفقهاء بأنها حرام على جهة الاشتغال به أو الاستعمال له ، فضلا عن النظر فيه ولو كان نظرا للتسلى .

ويذهب أحد الباحثين إلى أن المنصور ابن أبى عامر هذا قد وجد فقهاء المشرق يجاهرون بتحريم الفلسفة عندهم ، وأن تلك الفتوى فى المشرق - بتحريم الفلسفة - قد وجدت لها أصداء فى المغرب حتى سرت عدواها بين علمائه الذين أعلنوا هم أيضا تحريم الاشتغال بها وراحوا يجاهرون بكراهيتها وتقبيحها ، وربما طعنوا فى القائمين عليها ، وشككوا فى نجاة من أمر بها أو أباح تناولها قاصدين عبدالرحمن الثالث والحكم المستنصر ، ومن سيأتى بعدهما فاغتنم ابن أبى عامر تلك الثورة التى جاءت بها الفتوى وأراد تهدئة ثورة القلوب الخانقة عليه وهو صاحب الفعلة المذمومة ، التى جاءته من تغلبه على ملك ليس له ، وتلقيبه نفسه بلقب كان لبنى أمية - فأمر بإحراق

---

(١) الدكتور / محمد غلاب - الفلسفة الإسلامية فى المغرب ، الدكتور / سليمان سليمان حميس - نهاية الفلسفة الإسلامية فى المشرق وبدايتها فى المغرب ص٢٣ ، والدكتور / عبدالمعطى محمد بيومى - الفلسفة الإسلامية فى المشرق والمغرب جـ٢ ص٦٢ ط الأولى .

كتب الفلسفة[1] بالذات ، لأنها التى صدرت الفتوى فيها على وجه الخصوص ، وأنه فعل ذلك تحببا إلى عوام الأندلس وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم .

وهو نفس ما يؤكده القاضى صاعد من أن تلك العلوم كانت مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بألسنة رؤسائهم ، فلما فعل ابن أبى عامر ذلك بها سكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، وخملت نفوسهم ، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم[2] ، ولم يزل أولوا النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ، ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك إلى أن انقرضت دولة بنى أمية[3] ، وتابعتها أو من جاء على أكتافها ولقب بألقاب خلفائها فى الأندلس وحل محلها ملوك الطوائف .

❁ **وفى تقديرى:** أن ابن أبى عامر لم يكن غبيا إذ أنه نشأ فى بيئة علمية ، وكانت له همساته الفنية ، بل صار من رواد الحركة الفكرية أبان صباه وشبابه ، كما كان ملما بعلوم الشريعة والأدب بارعا فيها متمكنا من أفانين الأدب نظما ونثرا عاشقا مجالس العلماء والأدباء[4] ، وأنه كان فى غزواته يصطحب معه صفوة من الكتاب والشعراء ، وأن تلك الصفات اللامعة فيه هى التى حدث بالخليفة الأموى فى المغرب – الحكم المستنصر بالله ٣٥٠/٣٦٦هـ أن يجعله حاجبا له ، فليس من المعقول أن يكون الحكم المستنصر هذا أديبا عالما رائدا لحركة فكرية عظيمة ، ثم يختار حاجبا ليست لديه الملكات المتوسمة فى من يشغل ذلك المنصب الحساس

---

(١) الدكتور رفقى زاهر – فيلسوف الأندلس ابن رشد ص٥ بتصرف يسير .

(٢) لأن من سيحاول القيام بها حتما تقع عليه الفتوى ، وبالتالى سيناله العقاب المنتظر لأمثاله .

(٣) القاضى صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن صاعد – طبقات الأمم ص٧٧ .

(٤) الأستاذ / عبدالحميد محمد طلبه – دراسات فى أدب الأندلس ص١٧١ ط أولى سنة ١٩٦١م .

الدقيق والعلمى الهام فى نفس الوقت ، وإلا كان الاتهام منصبا على الحكم نفسه لو كان ابن أبى عامر هذا غبيا أو جاهلا .

غير ان ابن أبى عامر هذا – الملقب بالمنصور – لم يتمكن من السيطرة على نوازعه الشخصية تمكنه من العلوم والمعارف ، وإنما كانت نزعاته أقوى من أن يسيطر عليها ، وبالتالى فلم يظهر أى تسامح مع أصحاب الآراء الحرة ، ما دامت ستكون شوكة فى ظهر حكمه[1] ، وقد كانت تلك النزعة الضيقة الأفق عنده تمثل نفس التيار الذى يندفع فيه أى حاكم مطلق يخشى على زوال حكمه أو اهتزاز كرسى العرش من تحته[2] ، ولو كان يتمتع بقدر كبير من الثقة فى شرعية خلافته وأحقيته بها لما حال بين العقل وممارسة حقوقه فى التفكير والإبداع ، والمؤسف له أن ظل ذلك الحال بعد المنصور فى ولده عبدالملك الذى سار مسيرة أبيه من بعده فى ذلك الجانب .

إذن عصر الدولة العامرية كان قيامه على أنقاض بنى أمية وعلى حساب النهضة العلمية ، وانه لم يكن لصالح الحركة الفكرية التى تسعى للتقدم والنهوض ، ومن ثم سوف تخبو فيه جذوه العقل حتى التلاشى ، كما قد تنطفئ أنوار المعارف الإنسانية كلها ، وتتلاشى ملكات العلم حتى أخر رمق فيها ، لا باعتبار سيطرة الفقهاء على أنماط الحياة ، وإنما باعتبار القائم على كرسى الحكم[3] ، الذى سوف يركز كل اهتماماته على استرضاء طائفة بعينها بحيث يظل أمر الحكم له مستقرا .

---

(١) الدكتور / فياض الأزدى – ابن أبى عامر ونهاية حكم بنى أمية ص٢٣ – طبعة الدار البيضاء ١٩٥٧م .

(٢) الأستاذ محمد عبدالله عنان – دولة الإسلام فى الأندلس – العصر الأول القسم الثانى ص٦٩٢ ، وراجع هذه الموسوعة ففيها وصف دقيق للعصور الإسلامية فى الأندلس والمغرب من الناحية السياسية والثقافية وغيرها .

(٣) حتى راح كل يمارس هوايته العقلية داخل العلوم التى يتمكن منها حتى لو كانت علوما شرعية ، وهنا ظهر اختلاط للعلوم العقلية والشرعية معا فى التفسير والكلام ، وغيرهما من العلوم الشرعية .

وكلما كان الجالس على كرسى الحكم ضعيفا فى السيطرة على نوازعه ، كانت شوكة من يسترضيه قوية عليه ، وأحكامهم على غيرهم قاسية إلى الحد الذى لا يطاق ، حتى يتحول الأمر فى النهاية معها إلى حكم يعبر عن وجهة نظر طائفة بعينها ، أو تصير تلك الطائفة هى الحاكمة الفعلية بما فى أعماقها ، ومن ثم يبدأ الضعف فى التسلل إلى جسم الأمة القوية والفوضى فى حرمها تعم ، وأهل العرفان بالله من أمام ذلك الطوفان المتلاطم يختبئون ، وكان ذلك حال الأندلس فى ظل دولة ابن أبى عامر حتى انقضى أمرها تماما وبات من الضرورى أن يحل غيرها بدلا منها ، فكانت دولة ملوك الطوائف هى البديل الموجود عن الخلافة المتكاملة .

(٦) عصر ملوك الطوائف ٤٠٠ ـ ٤٨٤هـ[١]

وحيث تلفت الناس إلى ابن أبى عامر ذلك الذى سلف الحديث عنه ، وما صنعه بخلافة بنى أمية وخلفائها اهتزت ثقتهم فى الجالس على عرش الخلافة ، والحكم عليه بعدم تجرده عن هوى النفس فى كل ما يقوم به ، بل على العكس من ذلك تماما ، فقد بات الرجل أمام هؤلاء الناس فى موقف الضعيف الذى أغرته شهوة الملك على التنكر لكل القيم والقواعد الثابتة[٢] ، والأصول العامة التى تلقنها الصغار عن الكبار ، ويقوم بها كل من يتمكن منها على الوجه الأكمل ، وإلا كانت النقائص منسوبة اليه .

---

(١) وهو الموافق لأعوام ١٠٠٩ / ١٠٩١ من الميلاد ، ويعرف هذا العصر بعصر الدويلات ، أو ملوك الطوائف بالأندلس والمغرب الإسلامى ، وقد تعرضت المصادر التاريخية فى شيء كثير من التفصيل - راجع للأستاذ / محمد عبدالله عنان - دولة الإسلام فى الأندلس " دول الطوائف - العصر الأول والثانى والثالث " .

(٢) الأستاذ على عبداللطيف - القيادة العامة قواعد وأصول ص١٧١ ط أولى ١٩٦١ .

ومن هنا بات موقف ابن أبى عامر بالنسبة للخلافة غير منضبط باعتبار أن الموجه لدفة الأمور فيها غاصبا لها ، فراح البعض ينفلت من قيود التوقير للخليفة والاحترام ، وان كانت انفلاتات قليلة ، لكنها تزداد سريعا مما يجعلها تشيع ، فيتبدل الأمر من الهدوء إلى العنف ، ومن الاستقرار إلى القلق والاضطراب[١] ، ومن الاتحاد إلى التفرق ، وهذا كله مما أصاب الخلافة الإسلامية فى الأندلس عقب تغلب ابن أبى عامر على الأمر ، وظل معها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى وكانت له أثاره السلبية على التفكير العقلى والحركة الفكرية .

وموقف ذلك شأنه فلابد أنه سيؤثر على النهضة الثقافية التى كانت أخذة فى النهوض السريع باعتبار ان الاضطراب السياسى يصاحبه عدم استقرار من الناحية الأمنية ، وكذلك يتوافق معها انفلات أخلاقى ، وذلك كله يؤثر على الناحية العلمية والتكوين الذهنى لأن المفكر ابن البيئة التى نشأ فيها ، ونمى بين أحضانها[٢] ، وهو ما كان يخشاه أهل الإسلام ، ونبه القرآن الكريم والحديث الشريف وإجماع علماء الأمة إلى أن التفرق ينتهى بأصحابه إلى الهزيمة والتمزق .

قال تعالى ﴿ " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾[٣] ، وفى الأثر " من جاءكم

---

(١) الدكتور / بدير عبدالوالى ابن عبدالكبير - الأندلس والدولة العامرية ص٩٣ ط الرابط ١٩٥٢م .

(٢) وذلك مما يسفر عنه أى بحث علمي فى البلاد التى وقعت فيها اضطرابات سياسية وأمنية ، وراجع دولة الإسلام فى الأندلس من الخلافة الأموية إلى الدولة العامرية للأستاذ / محمد عبدالله عنان - الطبعة الرابعة - مطبعة الخانجى ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .

يشق هذه الجماعة فإلى رأسه شجوة[١] ، وما ضاعت بلاد الإسلام الا حينما تفرقت جماعة المسلمين فى الرأى وتنازعت القواعد الثابتة وصولا إلى الحكم ، وتربعا على عرش السلطة ، وطلبا لأبهة الملك الذى هو مسئولية أمام الله جل علاه قبل أن تكون أمام الناس ، وفى الحديث "كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعايته فليتق الله كل فيما استرعاه " .

ونظرا لذلك فقد قطعت أوصال الخلافة الإسلامية إلى أجزاء متفرقة كل جزئية منها تنحاز نحو هدف معين وغاية بذاتها ، فصار صديق الأمس عدوا ، والمساند فى الماضى معارضا ، حيث يذكر المؤرخون أن بنيان الأندلس الشامخ وصرحه العالى فى نهاية الدولة العامرية قد تصدع ، وقسمت الخلافة الواحدة إلى مناطق كثيرة أبرزها ست[٢] ،كل منطقة منها تضم إمارة أو أكثر ، تجاوزت جملتها الأربع والعشرين إمارة ، وعرف ذلك العصر باسم عصر دويلات الطوائف ، أو ملوك الطوائف ، أو الطوائف إلى غير ذلك من التسميات التى أفاض فى بيانها الدارسون ، وعنى ببيان أوجهها المؤرخون .

---

(١) ذلك مما أصر عليه الصحابة الأجلاء والخلفاء الراشدون ، فلم يسمحوا بالبقاءه لمن حاول شقْ عصا الجماعة الإسلامية ، وإنما واجهوه بما ينبغى ، فلما كثرت الفتوحات ، وتعددت البلاد ، وضعفت النفوس انتهى الأمر بتمزق الجماعة الإسلامية التى نرجو الله تعالى أن تلتئم وتتماسك حتى تعود قوية كما كانت تحافظ على ابنائها ، وتصون لهم حريتهم فى العقيدة والشريعة وما يستتبع ذلك .

(٢) ومن المعروف أن هذا العصر شهد العديد من الدويلات والإمارات والممالك المستقلة بعضها عن بعض يحكم كل واحدة منها أمير أو ملك مستقل عن باقى إخوانه من الملوك والأمراء حتى بلغ الأمر بأن طمع بعضهم فيما تحت يدى البعض الآخر من مملكة أو إمارة - راجع الإسلام فى الأندلس - دول الطوائف الأستاذ / محمد عبدالله عنان - العصر الثانى - مكتبة الخانجى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

غير أن هذا التفرق بالتجزئة فى الأندلس لم يكن فى مجرد تقسيم الخلافة إلى مناطق نفوذ ، أو مجرد تقسيم إدارى ، خاضع للظروف والملابسات التى قد تفرض فى وقت من الأوقات فيكون ذلك اللون من التقسيم مرادا به تيسير الإجراءات ، أو تبسيط أوجه المعاملات ومساعدة الناس فى قضايا ما يتعلق بهم من مصالح ، وإنما هو تقسيم قائم على الاستقلال فى الرئاسات ، واستقلال فى الأهداف والغايات[1] ، وقد أدى ذلك كله إلى التطاحن الشديد ، واصطناع الدسائس والوشايات والتهديد باستخدام القوة والعنف حتى الإزالة من الوجود ، بكل الوسائل التى أمكنهم الوصول اليها .

ولا شك أن ذلك كله كان له أثره السلبى على هذه الدويلات ذاتها الراغبة فى المحافظة على السلطة الزائفة ، وقد حاول البعض التمسك بها مهما كان الثمن الغالى[2] ، فباعوا أخلاقهم وقيمهم للوعود التى مناهم بها العدو المشترك - المتربص بهم - فى نصرتهم على إخوانهم من المسلمين ، وسبحان الله تعالى تغيرت بأهل الأندلس والمغرب الأحوال حتى صار العدو المتربص بهم - المحارب لآبائهم وأجدادهم المدمر لكل تراث تركه سلفهم - صاحب وعود يمنيهم بها فى أن يغلبوا إخوانهم من أهل الإسلام[3] ، وهنا انحطت بينهم صور الهوان بجانب الخيانة المزدوجة ، والتى كان من نتائجها ضياع الأمة ذاتها بضياع الأخلاق التى عرف بها أهل الإسلام هناك .

ومما يؤسف له أن بعض هؤلاء الأمراء كان يرى أقدام أعدائهم تخطو نحو أطراف إمارته هو ، كما يلاحظ فعالهم السلبية اليه تعدو ، فيغض طرفه عنها حتى بلغت

---

(١) الأستاذ / بركات الوكيل - نكبة الأندلس ص١٩٣ - الطبعة الأولى - دار رمضان ١٩٢١م .

(٢) الأستاذة مماضر عبدالحى - ملوك الطوائف بالأندلس ص٧٧ .

(٣) الأستاذ / بركات الوكيل - نكبة الأندلس ص١٩٥ - الطبعة الأولى - دار رمضان ١٩٢١م .

بالأعداء الجرأة أن ينهشوها بأسنانهم ، ويقطعوها بأنيابهم[1] ، ويوغلوا فيـها عـن كـل ناحية تحلو لهم ، ومع هذا لم يحاول ذلك الأمـير أو غـيره التعـرض لهـم ، أو إظـهار الرغبة فى إبعاد الفريسة عنهم ، أو إبعادهم عنها . ومن ثم سقطت بعض مدن الأندلس الإسلامية فى يد نصارى الشمال الذين لا يعرفون عدلا ولا رحمة الواحدة تلو الأخرى .

أجل انقسمت بلاد الأندلس – فى عـهد ملوك الطوائـف – إلى دويـلات صغـيرة تخضع كل منها لواحد من هؤلاء الرعـاة الذيـن أحـاطوا عروشـهم بأبهـة الملك ولقبـوا أنفسهم بألقاب الخلفاء[2] ، ولكنهم لم يخرجوا عـن هـذا الإطـار النظـرى إلى الجـانب العلمى التطبيقى الذى تفرضه تلك الألقاب من دفاع عن الإمارة أو المملكة . وبحث عن مصالحها . وتأمين أطرافها وبعث الحياة فيها على كل ناحية ، كل مـا صنعـوه أنـهم فرقوا الدولة الإسلامية القوية فى الأندلس إلى إمارات صغـيرة بـات مـن السـهل للعـدو المتربص بها أن ينهشها واحدة بعـد التـى تليـها . وهكـذا ضـاعت بـلاد الإسـلام فـى الأندلس الإسلامى بيد الكثيرين ممن ينتسبون إلى الإسلام .

من ثم رأينا لهؤلاء الأمـراء شـعراء وأبواقـا تـردد أمجـادا زائفـة ، وتتحـدث عـن بطولات وهمية لا وجود لها إلا فى الخيال ، بعد أن راح كل منـهم يزمجـر فـى وجـه إخوانه من أهل الإسلام[3] ، مما جعـل اوجـه الخـلاف بينـهم تـزداد ، والشـقة معـها تتسع ، والفوضى فيما حولهـم تعـم ، والاضطرابـات لا تتوقـف ، ممـا أطمـع الفرنجـة فيهم ، وجعلهم يتجاوزون كـل الحـدود فـى التعـامل معـهم ، بـل ويسـتعدون لابتـلاع

---

(١)الأستاذة مماضر عبدالحى – ملوك الطوائف بالأندلس ص٨٩.

(٢) الدكتور / رفقى زاهر – فيلسوف الأندلس ابن رشد ص٦ .

(٣) الأستاذ / بركات الوكيل – نكبة الأندلس ص٢٠١ – الطبعة الأولى – دار رمضان ١٩٢١م .

ممتلكات المسلمين كلها فى الوقت الذى كان هؤلاء الملوك والأمراء يحيطون مجالسهم باللهو ومظاهر الترف[١] ، الذى انغمسوا فيه ولم يحاول شكر الله تعالى عليه .

ولم يحيطوها بالقوة المطلوبة والترشيد المدروس ، والحكماء الناصحين حتى يدفعوا عن أنفسهم وإخوانهم العدوان المتربص بهم ، ولو التزموا النصيحة لتذكروا النصوص الإسلامية التى تحدثت عن العقيدة والشريعة والأخلاق أو تذكروا ما قاله العربى القديم طرفة بن العبد :-

إن كنت فى حاجة مرسلا ∴ فأرسل حكيما ولا توصه
وان ناصح منك يوما دنا ∴ فلا تنأ عنه ولا تقصه
وان باب أمر عليك التوى ∴ فشاور لبيبا ولا تعصه
وذو الحق لا تنقص حقه ∴ فإن القطيعة فى نقصه[٢]

ونظرا لحرص أغلب ملوك الطوائف على الجانب النظرى من الملك والأبية التى تحيط بالملوك والأمراء ، فقد أحاطوا أنفسه بالألقاب الكثيرة والكنى المتعددة ، ومجالس اللهو والسمر ، التى كان الشعراء فيها أصحاب الصولة والجوله[٣] ، بما لديهم من فنون الكلام . وما يملكون من وسائل التعبير الأدبى ، وقدرتهم على صياغة الشعر فى أعلى ألوان المدح ، وحكاية ذلك بين العامة الذين ربما رددوه لسهولته ، أو لكونه يحمل شيئا من الفكاهة وألوان الدعابة .

---

(١) الأستاذ / على الدين عبداللطيف - القيادة العامة قواعد وأصول ص١٨٧ .

(٢) فردريك روزنتال - التراث القديم فى الحضارة الإسلامية ص٢٢٠ - تقديم وتعليق الدكتور / عبدالله حسن المسلمى - مكتبة سعيد رأفت ١٩٩٣م ، وهو قريب جدا فى موضوعاته من كتاب " تراث الإسلام - الجزء الأول والثانى "

(٣) الأستاذ توفيق على الدين - الشعر لا يغنى عن العلم ص١٢٩ .

❁ وينقل أن ابن رشيق الشاعر وصف عصر ملوك الطوائف متبرما بما فيه قائلا :

مما يزهدني في أرض أندلس ∴ ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها ∴ كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد[١]

وهي أنات حائر عبرت عن ذلك الذي يجيش بصدر الشاعر العربي ، وهو يرى بلاد الأندلس الإسلامية العظيمة في حالة من الضعف والهوان ، والتفكك مع الانحلال ، وكانت من قبل واحة الأمان ، ومرفأ العلم والسكينة بجانب العرفان .

وإذا عرفنا أن الحضارة السائدة في بلد هي المعبر الأساسي عن ثقافته ، وأنها الانعكاس الطبيعي لعقلية الجماعة المفكرة الموجودة به ، والعلوم التي هي أسس التكوين الذهني لتلك العقلية أدركنا أنه في ظل التمزق السياسي ، وعدم الاستقرار الأمني ، تحدث انتكاسات في الجوانب المعرفية[٢] ، وارتدادات للخلف بدل الانطلاق للأمام .

في نفس الوقت فإن ملوك الطوائف قد شغلوا بالحروب المستمرة والصراعات المتوالية ، والفتن والدسائس التي لا تتوقف بجانب تعدد الرئاسات الوهمية ، وتنوع الاتجاهات المختلفة ، مما جعل الحروب الأهلية بينهم شبه دائمة[٣] ، فدفع بهم ذلك إلى الطغيان على إخوانهم وتجاوز كل حد ممكن في التعامل مع المخالفين ما داموا على غير آرائهم قائمين أو لخصومهم داعين ولمآثره شاكرين سواء كان ذلك المخالف لهم من العامة أو من العلماء .

---

(١) هذا مما يتناقله الكثيرون عن ابن رشيق - راجع فيلسوف الأندلس ابن رشد ص٦ ، الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب جـ٢ ص٦٣ - ط أولى مع تبديل في بعض ألفاظ الشطر الثاني من البيت الأول .

(٢) الأستاذ / عبدالوارث صالح العبد - علاقة السياسة بالثقافة ص٧١ ط الثالثة ١٩٦٢م .

(٣) راجع للأستاذ / محمد عبدالله عنان - دولة الإسلام في الأندلس ، دول الطوائف العصر الثاني - مكتبة الخانجي ، وله العديد من المؤلفات في هذا الجانب .

ولا شك أن هؤلاء الملوك كان فيهم أدباء ، ومنهم خطباء وشعراء ، وبينهم نبهاء وعلماء ، وان قصور بعضهم كانت منتديات بالمعارف الأدبية زاهية ، ومجالس الشعراء رابية ، حتى عدها البعض مجامع علمية فيها الأدب والفن ، بجانب ألوان الفكر الأخرى التى هى وليدة النظر فى المعارف الإسلامية بصفة عامة ، وتصلح للتطبيق فى بلاد الأندلس والمغرب الإسلامى بصفة خاصة ، لكن ذلك كله لم يصلح ما أنفتق فى جسم الثقافة الإسلامية بالأندلس[1] ، أبان ذلك العصر ولم يكن قادرا على الوصول بها إلى جانب الأمان . أما لماذا ؟

فلأن فترات الاستقرار العقلى فى عصر ملوك الطوائف بالأندلس وكانت قليلة جدا ، وبالتالى فإن الحرية الفكرية والعقلية المسموح بها ستكون هى الأخرى على نفس الدرجة من القلة حتى تكون بمثابة الثوب اللامع الزاهى الذى يشف ما تحته ، فتكون الثقافة حينئذ مجرد قشرة بسيطة متمثلة فى بعض الملامح المسطحة غير العميقة فى جانب العلوم والمعارف العقلية[2] ، أما المعارف العلمية والآداب فهى تمثل صورة من اختبار الملكات . وليس بلازم أن تعبر عن تقديم سريع فى العلوم والمعارف العقلية ، ولذا فإن عصر ملوك الطوائف كان زاهيا فى الشعر والأدب .

ولم يكن على نفس المستوى الادائى فى العلوم والمعارف العقلية ، ولا يرد على ذلك ظهور بعض أفراد قلائل من المفكرين المبدعين فى ذلك العصر كالإمام ابن حزم الظاهرى[3] مثلا . لأن الحركة الثقافية لا تقاس بشخص أو أفراد قلائل ، وإنما تقاس

---

(١) الأستاذ / توفيق على الدين – الشعر لا يغنى عن العلم ص١٣١ ط أولى ص١٩٧١ .

(٢) لأن العلوم والمعارف العقلية تحتاج عمقا ذهنيا أكبر مما تحتاج مساحة واسعة فى الأفكار .

(٣) هو العلامة أبو محمد على بن أحمد بن حزم القرطبى الأندلسى ولد ٣٨٣هـ فى أواخر عهد المنصور ابن أبى عامر ، وكان أبوه أحمد بن حزم من وزراء المنصور المقربين ، نبغ ابن حزم مبكرا ، فحفظ القرآن الكريم على يد خارية فى أوقات العصر ، وبرع فى كثير من العلوم ، وترك تآليف كثيرة فى أغلبها تدل على سعة علمه – راجع مقدمة طوق الحمامة .

بما أنتجه ذلك الفرد أو الجماعة ، وكيف تم التعامل مع ذلك الفكر والمفكر أيضا[1] ، كما أن العبرة بالعموم ، وهو القاعدة ، وليس الأفراد الذى هو الممثل للاستثناء .

كما أن التعامل مع ذلك الفكر والسماح به هو المحك الرئيسى للنهضة العلمية باعتبار أنها علوم إبداعية ، والابتكار فيها قائم محتمل ، بالتالى فإن محاولة الارتداد به إلى صدر صاحبه ، تقتل فيه ملكة الإبداع والابتكار التى هى العنصر الفعال فى أى نهضة فكرية علمية قائمة على أصول صحيحة .

على كل ظل ملوك الطوائف فى اتجاهاتهم التى غلب عليها طابع العنف والقلاقل والثورات التى تدور فى الداخل من جهة وأ'دائهم الذين يعيشون بينهم ، والمؤامرات التى تجرى من الخارج عن طريق الأعداء التقليديين ، وكان خصوم الإسلام يتربصون بملوك الطوائف فى الأندلس الإسلامى الدوائر ، فاستغلوا تلك الخلافات الواقعة بين ملوك الطوائف ودويلاته إلى أبعد مدى ، وحينئذ ضعفت تلك الدويلات الصغيرة فى الأندلس ورأى الفرنجة أن الفرصة مواتية للزحف نحو الأندلس لاسترداده من أيدى المسلمين[2] ، الذين كانوا فى غيبة واقعية عن ما يدبره أعداء الإسلام والمسلمين لهم .

وقد نجح الأعداء فى ذلك حتى أوشكت تلك الطوائف أن تسقط فى أيدى الأعداء واحدة تلو الأخرى[3] ، لولا أن تدارك الله تعالى برحمته هذه البلاد واستجاب لدعاء الضعفاء من أهل الصلاح والعرفان بالله ، فألهم المعتمد بن عباد ملك إشبيلية أن

---

(١) راجع دولة الإسلام فى الأندلس العصر الثانى - دولة الطوائف - ط٣ للأستاذ / محمد عبدالله عنان ص٤٢٣ .
(٢) الأستاذ / عبدالفتاح على شلبى - المسلمون فى الأندلس حـ٢ ص٢٧٢ - سنة ١٩٢٢م .
(٣) الأستاذ / بركات الوكيل - نكبة الأندلس ص٢١٥ .

يستنجد بأحد زعماء المسلمين الأقوياء فى تلك الآونة ، وهو يوسف بن تاشفين صاحب دولة المرابطين فى شمال إفريقية الذى زحف لنجدة إخوانه من المسلمين وتناسى العداوات وترفع عنها حتى أمكنه تجميع قواته ، وجابه الفرنجة ومن معهم من الأعداء فى موقعة الزلاقة ٤٨٠هـ التى انتهت بانتصار المسلمين[1] ، وهزيمة الأعداء الذين استسلموا ثم قرروا دفع الجزية إلى المسلمين وعرفوا ان شوكة المسلمين ما تزال قوية ، وأن الإسلام له أهله الذين سيدافعون عنه .

لكن كلما كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجساد ، فما أن استكان الفرنجة للانتصار الإسلامى على الناحية العسكرية الا وراحوا يزيدون فى غراس الفتنة بين المسلمين ، والدفع بعناصر خارجية تزى أصحابها بزى أهل الإسلام ، وتناقلوا المفردات التى يتعامل بها المسلمون ثم وراحوا يطلقون أحكام الفسق والكفر على بعض الأئمة والعلماء ، بل والصالحين أيضا ، وأهل الولاية بالله[2] ، ويرددونها فى أسماع العامة على سبيل الجهر بها والإعلان عنها حتى يخففوا من حب العامة للعلماء ، ويدفعوا الأمير إلى اتخاذ موقف منهم ، فتقع الفرقة بين الأمير والفقهاء الذين هم عصب قوته ، وعماد شحن الناس على الناحية الإيمانية ، ومن ثم فلابد أن يحاول كل منهما – الأمير والفقهاء – إثبات أنه الأقوى فيشتد النزاع والصرع وتضعف قوة المسلمين .

---

(١) -الشيخ / نور الدين محمود بيومى – انتصارات المسلمين فى أفريقية جـ١ ص٣٧٧ ط أولى – المطبعة الوطنية سنة ١٩٣٥م .

(٢) الأستاذ / عبدالوارث صالح العبد – علاقة السياسة بالثقافة ص١٥٢ .

كما أنهم راحوا يذيعون على المعتمد بن عباد نفسه ما لا يليق به من الناحية السياسية والاجتماعية والدينية كأمير[١] ، مما جعل الحركات الثائرة ضده تعود للظهور مرة أخرى في أشكال عنيفة ، وظل هؤلاء الأعداء يغذون تلك الفتنة[٢] ، عن طريق العملاء الذين باعوا ضمائرهم للشيطان الذى يتربص بالمسلمين – حتى شملت نار الفتنة البلاد كلها ، وبات من المؤكد سقوطها فى أيدى الأعداء المتربصين به الذين يعملون على سقوطه في أيديهم إلى الأبد وبسرعة شديدة .

أدرك يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين هذا ضرورة إخماد الفتنة الواقعة فى جزء من البلاد الإسلامية والمحافظة على كيان الأمة الإسلامية فى الأندلس ، وإبعاد شبح الانهيار عنها ، فعاد إلى تلك البلاد مرة أخرى حتى يعيد الأمور إلى نصابها ، وقد نجح فى ذلك تماما وقضى على الفتنة فى وقت قياسى[٣] ، وكاد أن يعود بقواته إلى بلاده ولكن وجود بعض الرءوس التى تخفى النوايا السيئة دفع بالرجل إلى إبقاء قواته فى المنطقة حتى يستتب الأمر لأهلها[٤] ، فلما طال ذلك الأمد ولم يجد بادرة طيبة تؤكد له أن رءوس الفتنة قد رحلوا ضمها إلى مملكته لا حبا فى الملك بقدر ما هو حرص على مصلحة الأمة الإسلامية ، وابتداء من هذه الفترة ٤٩٣هـ ابتدأت دولة المرابطين فى الأندلس الإسلامى ككل[٥] ، وانتهى عصر ملوك الطوائف[٦] ، أو الدويلات الصغيرة .

---

(١) الأستاذ / عبدالفتاح على شلبى – المسلمون فى الأندلس جـ٢ ص٣١١ .
(٢) الدكتورة / لمان مصطفى صقر – الإسلام فى أفريقية جـ١ ص١٧٣ .
(٣) الأستاذ / السيد عبداللطيف – دولة المرابطين ودورها فى الأندلس جـ١ ص٣٥٧ – الطبعة الأولى بالدار البيضاء سنة ١٩٦٣م .
(٤) الدكتور / على الدين عبداللطيف – دراسات فى تاريخ الأندلس الإسلامى جـ٢ ص٢٥١ .
(٥) المعروف أن المرابطين كانوا موجودين قبل ذلك بكثير فى قبائل صنهاجة وبطونها " لمتونة وجدالة ومسوفة " وغيرها – راجع فيما سنعرضه عن عصر دولة المرابطين فى هذا الكتاب إن شاء الله وغيرها .
(٦) عصر ملوك الطوائف هو مما أفرزه الخلاف والانقسام فى نهايات الدولة العامرية ، الذى انتهى بملوك الطوائف المبتدئ ٤٠٠هـ تقريبا .

(٧) عصر المرابطين ٤٨٤/ ٥٢٠هـ

انتهى عصر الدولة العامرية في الأندلس الإسلامي كما انتهى من قبله عصر الدولة الأموية في المغرب ، وانتهى كذلك عصر ملوك الطوائف ، وكانت الحركة العقلية هي الضحية لتلك التفرقات والانقسامات السياسية ، التي أثرت بشكل واسع على الأفكار السائدة والعلماء الموجودين ، فلم تنهض من الكبوة التي سقطت فيها ، كما لم تستطع القفز فوق أسوار الخلافات القائمة ، وإنما وقعت ضحية لها هي الأخرى ، فتأخرت بعد أن كانت متقدمة ، وتقهقرت للخلف بعد أن كانت للأمام تسرع في خطوات ثابتة ، وكان ذلك في العديد من الجوانب التي تمثل الحضارة بأوسع معانيها .

فلما انقضى عصر ملوك الطوائف على ما سلف ذكره ، وتمكن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين من الإمساك بزمام الأمور في الأندلس والمغرب الإسلامي ، واستطاع أن يضمها إلى مملكته حاول الفقهاء إظهار تأييدهم له في خططه التي يهدف اليها[1] ، ومنها خلع أولئك الملوك الذين فرقوا البلاد ، وأطمعوا فيها شرار العباد ، بل كان في الفقهاء من سارع إلى الإفتاء بضرورة خلع ما بقي منهم على ولاية صغيرة ، باعتبار أنهم أصحاب منافع كم تفرقت بهم ، وأهواء قد تمزقت معهم[2] ، وأنهم ولوا مصالح البلاد والعباد فلم يقوموا عليها بما شرع الله تعالى ، وإنما كان همهم إطفاء الحقد المسعور ،

---

(١) الأستاذ / السيد عبداللطيف – دولة المرابطين ودورها في الأندلس جـ١ ص٣٦١ .

(٢) وفي الأمثال : إذا كان الحكم خصما عليك ، لن يقبل منك الشهود ، والفقهاء الموظفون شأنهم قائم وهم لم يختلفوا فيه – راجع قصيدتنا " منكم لله " في ديوان " دعوة مظلوم ونفثة مهموم " .

وإشباع الشهوة الجامحة والرغبة الرعناء ، وهى اتهامات ما أظنها تصدر عن فقيه ملتزم شرع الله تعالى على الناحية الإيمانية .

وسبحان مغير الأحوال كان بعض الفقهاء يباركون خطط ملوك الطوائف ف الماضى ، ويمتدحونهم بأرق المدائح وأكثرها إنتاجا وأوصافا ، ويحيطون مجالسهم بألوان الثناء[1] ، فلما تغيرت الأمور معهم من القوة إلى الضعف ومن الأمير العامل إلى المخلوع العاطل ، راح الفقهاء يثورون عليهم ويجاهرون بعداوتهم ، ولما زال ملكهم أفتى هؤلاء الفقهاء الموظفون بتحريم كتبهم التى جمعوها ، أو كانت لهم على سبيل الإنتاج الفكرى ، بل والشك فى وقوع النجاة لهم فى الآخرة .

وهم فى كل حال أشبه ما يكونون بموظفى الديوان العام الذين يوجدون فى الهيئات الحكومية بمصرنا هذه الأيام ، إذا ولى أمرها محافظ قاموا له بأفانين المدح ، فإذا نقل منه أو تخلى عنه ، أطلقوا عليه ألوان القدح كأنهم يستردون سالف ما كان لهم عنده من مدح ، وهى آفة أخلاقية[2] ، نهى عنها الشرع الشريف فى الكثير من نصوص الدين الإسلامى الحنيف .

لكن الراصد لحركة التاريخ يرى ضرورة تقديم إلماحه عن نشأة دولة المرابطين التى وليت حكم الأندلس والمغرب الإسلامى فترة من الفترات ، وكان لها نصيب فى الحركة

---

(١) وكان ذلك مما يدفع الناس لتقليدهم فيما ذهبوا اليه لما للفقيه فى النفوس من " رونق ووجاهة ، فهو عندهم من أرفع الشخصيات وسماته من أعلى السمات - راجع العلامة المقرى - نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب حـ١ ص٢٢١ وما بعدها .

(٢) لأنه نوع من النفاق ، وفى نفس الوقت ففيه إلغاء الإنسان لقدراته العقلية ، حيث يصير معه وفى الحديث الشريف « لا تكن أمعة تقولون : أن احسن الناس أحسنا ، وإن أساءوا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم أن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فى تظلموا » .

العقلية والفتوحات الإسلامية والمحافظة على كيان دولة الإسلام فى المغرب الإسلامى كله ، أو كان لها تأثير قد ينتهى إلى عكس ما ذهبنا .

أولاً: التسمية

الملاحظ أن التسمية بالمرابطين قائمة عل أساس دينى ، باعتبار أن الرباط والمرابطة من المصطلحات الإسلامية القائمة فى النقل المنزل ويأتى بعضها فى رحاب الجهاد ، الذى هو فريضة إسلامية ، من ذلك قوله تعالى﴿ " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وانتم لا تظلمون "﴾[1] ،

❁ **والمعنى:** يا معشر المسلمين « أعدوا لمواجهة أعدائكم ما استطعتم من قوة حربية شاملة لجميع عتاد القتال ، من المرابطين فى الثغور وأطراف البلاد بخيلهم لتخيفوا بهذا الإعداد الشامل ، والرباط الدائم عدو الله وعدوكم من الكفار المتربصين بكم الدوائر ، وتخيفوا آخرين يحاولون التفكير فى إيذائكم والتعرض لكم لا تعلمونهم الآن ، لكن الله تعالى يعلمهم ، ويعلم ما فى نواياهم»[2] ، فكونوا على استعداد تام لمواجهة أى أمر يدبرونه لكم .

والمرابطة كلمة ولردة فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهى تعنى الصبر على المكاره ، وتحمل الصعاب والمشاق وتعبئة النفس الإنسانية المسلمة بما شرع الله تعالى فى كتبه ، وجاء على ألسنة رسله ، من ذلك قوله تعالى ﴿" يا أيها الذين أمنوا

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٢) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص٢٧٠ – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط خاصة بمشروع زايد بالإمارات المتحدة .

اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[1] ، وفى الحديث الشريف " فذالكم الرباط فذالكم الرباط "[2] ، وفى لغة العرب " الرباط ما تشد به الدابة أو القربة "[3] ، والمرابطة هى ملازمة ثغور العدو التى يمكن أن يتطلع اليها أو يجىء منها[4] ، ورباط الخيل مرابطتها ، حتى تكون مستعدة للقيام بما يناط بها[5] ، من ألوان الجهاد فى سبيل الله وغيرها من نشر العلوم والمعارف الإسلامية التى تمثل أنواعا مختلفة من أنواع الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وكلها تجرى فيها المرابطة باعتبار اللفظ وان تعدد المعنى .

إذن المرابطة مما تعنى الصبر على احتمال المكاره ، وتحمل المشاق ، بجانب تعبئة الشعور وتهيئة الوجدان لما يكلف المرء به من وقف محاولات العدوان على الإسلام وأهله بالحيل التى يجيدها أعداؤه ، وربما نام عنها أبناؤه ، وعليه فإن المرابط هو من هيأ نفسه وقلبه بجانب ضميره ، وتهيأ وجدانه وماله على سبيل الحبس المستمر لله تعالى ابتغاء محبته ، وطلبا لرضوانه ، وهو المعنى الذى ربما كان من الإشارات اليه قوله ﷺ " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها "[6] ، وعليه سار السلف الصالح ومن بعدهم التابعون ، وسيظل هذا المفهوم فى أعماقنا حتى نلقى الله تعالى ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠٠ .

(٢) الأستاذ / محمد عبدالباقى أحمد - دراسات فى السنة المطهرة جـ٢ - الجهاد ص٩٥ .

(٣) المعلم بطرس البستانى - قطر المحيط باب الراء - ط دار الفكر - بيروت .

(٤) العلامة الزمخشرى - أساس البلاغة - باب الراء - طبعة الشعب ص٢٧٥ .

(٥) العلامة ابن منظور - معجم مقاييس اللغة باب الراء والباء ، وراجع مختار الصحاح - مادة ربط ص٢٥٠ - الطبعة الثالثة ١٩١١م ، القاموس المحيط باب الطاء - فصل الراء وغيرها من مصادر العربية .

(٦) العلامة محمد بن عبدالعظيم - الجهاد فريضة إسلامية ص٢٦٢ .

ونسأله جل علاه الشهادة فى سبيله والجهاد الذى يرفع درجتنا عنده جل علاه يوم لقاء الله .

من ثم فإن المرابطين فى الإسلام هم جماعة من أهله أمنوا بالله تعالى ربا ، وبالإسلام دينا ، وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا ، واتخذوا من النصوص الإسلامية منهج حياة لهم ، ومن آدابه وسلوكياته ينطلقون ، ثم تمسكوا به ككل على ناحية العقيدة والشريعة والأخلاق ، بجانب غيرها من المعاملات على النحو الذى شرعه الله[1] ، وراحوا يدافعون عنها جميعا ، وأقاموا دولتهم على غاية بعينها هى إقرار شريعة الله تعالى فى الأرض حسب ما يمكنهم الله تعالى منه ، والعمل على عبادته جل شأنه بالصورة التى أمر بها جل علاه ، والمحافظة على دينه قويما بين الناس حسب ما شرع الله .

ثانيا: أصولها

يذكر المؤرخون أن المرابطين هم أنسال قبائل صنهاجة العربية وغيرها من القبائل التى انحازت اليها[2] ، واندمجت فيها حتى صارت من أنسجتها التى كانت تقيم فى أعماق الصحراء الجنوبية ، وكانت تضم ثلاثة بطون كثيرة هى:-

(١) لمتونه . (٢) جداله . (٣) مسوفة .

---

(١) الإسلام هو الدين الوحيد الذى يقوم على العقيدة والشريعة والأخلاق بما يصلح أمور الدنيا والآخرة - راجع للإمام الأكبر الشيخ محمد شلتوت - الإسلام عقيدة وشريعة ، وغيرها من المؤلفات التى أفاض فيها العلماء لبيان تلك الجوانب فى الإسلام .

(٢) الأستاذ / نصر الدين عبدالباقى أبو زنيمة - الأصول العربية بالأندلس جـ١ ص١٢٣ - ط أولى دار أبو زنيمة بفاس ١٩١٢ .

● وكل بطن منها كان يضم العديد من العشائر والأفخاذ، كما يضم الكثير من العائلات والبيوت بجانب الأفراد :-

- **أما جمع لمتونة** : فقد عانت كثيرا من ظروف الصحراء القاسية ، التى فرضت نفسها عليهم فترة طويله ، فقرروا الخروج من هذه الصحراء القاسية واللجوء إلى المغرب الأقصى طلبا للاستقرار ، والتماسا للراحة ، والعيش الهادئ[1] .

- **وقد رأى أهل البطنين الأخيرين - جدالة ومسوفة** - ما صنعته جموع لمتونة ، فانضموا اليها أملين لأنفسهم بلوغ ما تحقق لها من الهدوء والاستقرار والعيش الهادئ ، غير انهم فكروا فى الوضع الجديد ورأوا من المصلحة العامة تكوين اتحاد لهم يجمع بينهم تكون رئاسته فى الغالب الأعم من أهل لمتونة ، باعتبار سبقها فى الإقامة بذات المكان ، وشهرتها الواسعة فى القيادة والتعامل مع الآخرين ، بجانب ما غلب على المتعاملين معهم من استعمال الكلام ، وإطلاقه عليها جميعا[2] .

حتى كانت لمتونة هى الاسم الغالب على باقى البطون ، حتى لكأن صنهاجة القديمة التى خرجت من تلك البطون عادت مرة أخرى ، لكن لا باسم القبيلة ، وإنما باعتبار الصفة الغالبة عليهم ، وهى المرابطة للجهاد فى سبيل الله تعالى ، وبالتالى فقد عرفوا بالمرابطين من تلك الناحية حتى نسى الناس اسم الصنهاجيين فى الاستعمال وتمسكوا بالمرابطين لما فى الكلمة من التزام بشرف الإسلام وأنعم به من شرف .

فى نفس الوقت فإن القبائل المجاورة لهم لم تدعهم لأمورهم ، وإنما حاولوا إثارة الخلافات والمشاكل معهم والاحتكاك المستمر بهم ، حتى يتعرفوا إمكانياتهم ، وما

---

(١) الأستاذ فوزى محسن عبدالباقى - الأندلس فى ظل الصنهاجيين ص٩٥ .

(٢) الدكتورة / لمان عبدالعاطى - المرابطون قبل الأندلس ص٢١ .

يمكن أن تخبئه الظروف عنهم ، ولذلك فرضوا على المرابطين الدخول فى معارك عديدة دفاعا عن مبادئهم الإسلامية وعقيدتهم السمحة ، وشريعتهم الغراء ، وتحقيقا لآمالهم فى صيانة حرماتهم[١] ، وعدم تمكن أى معتد من الظفر بهم ، أو النيل من حريتهم ، وحياتهم العامة أو الخاصة .

بيد أن رؤساء هذه البطون الثلاثة كانوا يتمتعون بحب غامر للدين ، ولون هادئ من الدبلوماسية التى تتطلب الكثير من المرونة والقدرة على التعامل مع الآخرين ، بجانب الرغبة فى كسب الود باعتبار أن الدبلوماسية هى « علم وفن التمثيل والمفاوضة فى علاقات الدول بعضها البعض الأخر »[٢] ، وفى نفس الوقت فإن الدبلوماسية الناجحة هى التى تقاس بمقدار كفاءة القائمين عليها وخبراتهم والصفات التى يتمتعون بها[٣] ، وعليهم تعتمد الدولة فى علاقتها بالآخرين على النحو الذى تتحقق به قوتها ، وتعلوا معه فى كل ميدان هامتها متى كانت على الناحية الشرعية .

ثانيا : أبرز زعمائها

ونظرا لتعدد الرئاسات فى صنهاجة وبطونها قبل إنشاء دولة المرابطين وتوالى العهود حتى استكملت قوتها وضمت بقايا الأندلس اليها ، وصارت دولة شاملة لها وجود فعلى متواصل فى الحركة العلمية ، فإن ذلك يقتضى منا تقديم ألفاته سريعة إلى هذه الرئاسات محصورة فى زعمائها فقط ، فإن ذلك يسهل على الدارس التعرف لمصادر

---

(١) الأستاذ / توفيق محمد صبرى - دولة المرابطين فى الأندلس ص٤٥ .

(٢) الدكتور / عبدالعظيم محمد عامر - السياسة الدولية ص٩٧ ط دار الوفاء ١٩٦٧م .

(٣) الدكتور / عز الدين فوده - ما الدبلوماسية ص٢٣ - النهضة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م - المكتبة الثقافية العدد ٢٦٩ .

هؤلاء ، والأصول القديمة التى قاموا عليها ، حتى نصل إلى بداية عهد المرابطين على النحو التالى :ـ

أ) قبل تأسيس الدولة الكبرى

[١] محمد بن نيفات اللمطي

وكان رجلا صالحا محبا للعلم وأهله ، ملتزما بالدين الإسلامى والفضل والعلم بجانب الأخلاق الطيبة الكريمة التى جاء بها الدين الإسلامى الحنيف فى نصوصه الصحيحة – النقل المنزل – عارفا بالجهاد وفضله ، ومن شدة حبه للجهاد فى سبيل الله أنه كان يخوض المعارك بنفسه ، ويقود جيشه فى كل واقعة يقوم بها ، ولذا فقد نال شرف الشهادة التى كان يطمع فيها ، وفضل الجهاد حتى استشهد فى واقعة كانت بين قومه وبعض المعتدين عليهم من أهل السودان[١] ، الذين كانت لهم رغبة فى الاستيلاء على أطراف تلك القبائل .

[٢] يحيى بن إبراهيم الجدالي :-

وهو من بطن جدالة الصنهاجى ، تولى قيادة صنهاجة الموحدة كلها بعد استشهاد سلفه محمد بن نيفات ، وكان يحيى هذا محبا للعلم متميزا بالتدين الشديد ، حتى أنه من شدة حبه إلى العلم الدينى ذهب باحثا عنه فى مصادره بالقيروان وفاس ، وغيرها من بلدان الإسلام فى المغرب التى اشترت بالعلم والحكمة[٢] ، وعرف عن أهلها الحب للدين والتمسك به مع المحافظة الشديدة عليه .

---

(١) العلامة لسان الدين بن الخطيب – أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام – القسم الثالث ص٢٢٦ – تحقيق الدكتور / أحمد مختار العبادى ، محمد إبراهيم الكتانى ط دار المكتب بالدار البيضاء بالمغرب سنة ١٩٦٤م .

(٢) الأستاذ / عبدالكريم محمد الخياط – قبائل العرب فى الأندلس ص٢٥٣ سنة ١٩٢٣م

ولم يكن بحثه عن العلم الدينى مصادفة ، وإنما كان غرضا له ، كما لم يكن حريصا على أن يتعلم وحده ، وإنما ليستجلب معه بعض أهل العلم من فقهاء عصره ، بحيث يقوم هذا الفقيه العالم بتولى القيادة الدينية فى صنهاجة كلها ، والقيام فيها بدور الموجه الدينى الذى يقف على أسس صحيحة[1] من النقل المنزل وإجماع أهل الإسلام فى المسائل المعروضة .

فى نفس الوقت فلم يكن بحثه عن العلم فى القيروان مصادفة ، وإنما لسابق معرفته بعلمائها وأهلها ، وحرص علمائها على مباشرة العلم ومطابقته للسلوك ، كما أن أهل القيروان قد تقلبوا بين المذاهب الفقهية : الشيعى مرة ، والسنى أخرى ، ثم تعاد الكرة وأخيرا عادوا للمذهب السنى ، وخاصة بعد ضعف الدولة الأموية فى المغرب ، وكان لهم من ذلك التقلب ان أمكنهم التعرف على المذاهب بدقة شديدة .

وقد نجح يحيى الجدالى هذا فى الوصول إلى عالم متمكن من العلوم الشرعية كلها ، وكان ذلك العالم صنهاجي الأصل من بلاد جزولة الذين عرفوا بالعلم والدين بجانب الفقه والتقوى ، وهذا العالم الفقيه هو " عبدالله بن ياسين الجزولى "[2] ، الذى تاقت نفسه لهذه المهمة حيث صادفت فى وجدانه ميلا عارما لها ، وكان لذلك الاختيار عظيم الأثر بين شيوخ لمتونة وأبنائها ، غير أنه لم يطل له المقام بينهم فى هذه المرة فرحل عنها لأمور غير معروفة ، وبخاصة بعد وفاة يحيى بن إبراهيم الجدالى .

---

(١) الأستاذ / فوزى محسن عبالباقى – الأندلس فى ظل الصنهاجيين ص١١٢ سنة ١٩٣٥م .

(٢) الدكتور / السيد عبدالعزيز سالم – المغرب الكبير جـ٢ ص٦٩٢ .

[٣] يحيى بن عمر خليفة يحيى بن إبراهيم الجدالي

وكان رجلا طيب القلب محبا للعلم وأهله الجانب حييا مرهف الحس غير قادر على قراءة أفكار الآخرين بسهولة ، أو التعرف عليها في يسر متى لم يعلنوا عنها ، أو كانت لديهم القدرة على إخفائها ، ومن كان مثله فلابد أن تضطرب معه الأمور ، ولا تستتب على يديه الأحوال[1] ، وبخاصة أن هؤلاء الذين يتولى قيادتهم قد ألفوا الشخصية القيادية ذات القوة المؤثرة أيام حكم محمد بن نيفات اللمطى ، ويحيى بن إبراهيم الجدلى .

ولما لم يأنس يحيى بن عمر هذا في نفسه القدرة على القيام بأعباء الرئاسة لتلك البطون قرر الرحيل مع صديقه عبدالله بن ياسين الجزولى وصحبهما أخوه أبو بكر بن عمر قاصدين الهجرة للسودان[2] ، وقد انتهى الأمر بيحيى بن عمر إلى الانقطاع عن الأعمال الرئاسية والتفرغ التام للعبادة والابتعاد عن صنهاجة وبطونها فما أحلى التفرغ لله ، وما اجمل أن يكون المؤمن في خدمة مولاه جل علاه .

ولما كانوا جميعا – يحيى بن عمر ، أبو بكر بن عمر شقيق يحيى ، عبدالله بن ياسين الجزولى – من أهل العلم والدين فقد أسسوا رباطا لهم في المكان الذى قصدوا اليه ، وكان عبارة عن بناء يجتمع فيه كل من تفرغ للعبادة ، سواء كان من الزهاد أم من الصالحين ، من أهل الصفا والسالكين طريق الله تعالى – ويستعد للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين – الذى ارتضاه للعالمين وبالتالى فالرباط عندهم كان يجمع بين الصفتين معا :–

---

(١) كثير من المؤرخين يذهبون إلى ذلك ، ويؤكدون أن الشخصية القوية تكون خطرا على من بعدها إذا كان أقل من سابقه في القيادة – الأستاذة / نوال خليل – القيادة فن وإدارة ص٢٧٥ .

(٢) الدكتور / على السيد عبداللطيف – دراسات في تاريخ الأندلس الإسلامى جـ١ ص١٢٤ .

[١] **الدينية** : وهى العبادة وما يستتبعها من معرفة بأمور الشرع ، وتفقه فيها وبذل المجهود فى سبيل تحصيلها وإبلاغها للناس أيضا .

[٢] **العسكرية** : وهى التدريب على أعمال الجهاد فى سبيل الله والاستعداد لممارسته فى أى وقت يستدعى الجهاد ، ويسمى من يقيم فيه أو يسكنه مرابطيا[١] ، أخذا من التسمية ذاتها التى اعتبرها قاموا بإنشائه والعناية به ثم الانتساب اليه .

(ب) قيام دولة المرابطين

على أن هذا الرباط يعتبر من الناحية التنظيمية هو نهاية قبائل الصنهاجين ، وبداية دولة المرابطين التى قامت فيما بعد تحت زعامة عبدالله بن ياسين الجزولى العالم الفقيه الصنهاجى الأصل القيروانى الإقامة[٢] ، الذى كان قد استدعاه يحيى بن إبراهيم الجدالى لتكون له القيادة الفكرية والزعامة الدينية فى قبائل صنهاجة من قبل ، ولم يطب له المقام بها آنئذ ، وحل عنها[٣] وذلك يستدعينا ذكر لمحة عنه ومن وليها بعده حتى ضمت بلاد الأندلس كلها تحت قيادتهم ، وصارت تعرف باسم دولة المرابطين على وجه عام ، **وذلك على النحو التالي** :-

[١] عبدالله بن ياسين الجزولي :-

واحد من أهل بلاد جزولة ، صنهاجى الأصل ، نشأ فى أحضان العلوم الدينية ، ونما بين أنحائها ، فتشبعت بها نفسه وامتلأت روحه ، حتى استقرت كلها داخل وجدانه ، وتميز بالحب لعلوم الدين الإلهى ، فأخذ نفسه بأمور الشرع كلها

---

(١) الدكتور / السيد عبدالعزيز سالم - المغرب الكبير جـ٢ ص٦٩٤ - الدار القومية للطباعة والنشر .

(٢) الدكتور / على السيد عبداللطيف - دراسات فى تاريخ الأندلس الإسلامى جـ١ ص١٣٣ .

(٣) عرضنا لذلك الرحيل أثناء حديثنا عن يحيى بن إبراهيم الجدلى ، كما ألمحنا عنه حديثنا عن يحيى بن عمر أيضا فى هذا الكتاب فأرجع اليه ، فهو وان كان على سبيل الإشارة إلا أن فيه أمرا أسأل الله فيه السلامة والتوفيق .

وكانت له قدرة على التخلص من هيمنة نوازع نفسه عليه ، وقد طابق قوله فعله[١] ، فصارت حياته بالنسبة لمعاصريه نموذجا تتمثل فيه بعض جوانب العلم والعمل معا ، كما تتبلور فيه المعرفة والسلوك أيضا ، حتى بات محل أنظار العلماء يجلونه ويرون فيه صورة من صور السلف الصالح ومظهرا من مظاهره .

أختاره يحيى بن إبراهيم الجدالي لتولى قيادة صنهاجة الفكرية والدينية ، لكنه لم يتمكن من أداء هذا الدور نظرا لوجود العديد من المذاهب الفقهية المتباينة تحميها بعض القيادات المدعومة بنوع من السلطان السياسى ، التى استطاعت تأليب بعض النفوس الضعيفة المائلة للترف والنعيم ، وإهمال الأخذ بالأسباب على الرجل ، فقرر العودة إلى ما كان عليه من تفرغ للعبادة والزهد على النحو الذى كان يباشره من قبل .

غير أنه لما انقلب الناس على يحيى بن عمر وأطاحوا به ، رأى الرجل أن البلاد بحاجة إلى قيادة قوية[٢] ، فنهض ومن معه من أهل الرباط إلى بطون صنهاجة حتى يستتب الأمن ويقر الأمان بها ، ويحافظ على بقايا دويلات الإسلام فى المغرب من الوقوع فى أيدى الأعداء المتربصين به .

ولما كان أهل الرباط يعيشون حياة أقرب ما يكون إلى الأنماط العسكرية من تدريب على الجهاد واحتمال المشاق ، والقدرة على القيام بالأعباء العسكرية ، فقد يسر الله لهم الأسباب التى أخذوا بها ، وأمكنهم السيطرة على بطون صنهاجة كلها – لمتونة ، وجدالة ، ومسوقة – ومن هنا راحوا يضعون الأسس التى تقوم عليها الجماعة فكان ذلك

---

(١) هذا الذى يدعو اليه الشرع الشريف من ضرورة أن يكون الفعل السلوكى متطابقا مع العلم والمعرفة بالله تعالى وأحكامه . قال تعالى ﴿ " يا أيها الذين أمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " ﴾

(٢) الدكتور / بدر الدين أبو طالب – الصراعات القبلية وأثرها على مسلمى الأندلس ص٣٧٥ .

هو القواعد لدولة المرابطين التى سيكون لها شأن كبير فى المغرب والأندلس الإسلامى فيما بعد .

ومن الملاحظ أن القواعد الأولية التى قامت عليها دولة المرابطين فى الأندلس كانت على نحو عسكرى صارم ، ودينا قوى متماسك قادر على الردع ، أو قل أنها قامت على نحو علمى دينى روحى ، تبعه نظام عسكرى يحميه ويحافظ عليه[١] ، ويرد أطماع الآخرين عنه ، وفى نفس الوقت يعمل على تأمين الدولة فى حدودها وممتلكات أهلها بجانب عقيدتهم والأحكام الشرعية التى يلتزمونها .

كما أن جنده كانوا من أهل الصلاح والزهاد أصحاب الرباط فى سبيل الله ، ومعهم طالبو العلوم الدينية الإسلامية ، والراغبون نيل الثواب من الله تعالى يوم لقائه جل علاه فى الآخرة ، وجيش أفراده من هذا النوع يتمتعون بتلك الصفات ، من شأنهم أن يتفانوا فى سبيل نصرة دينهم[٢] ، ومؤازرة قائدهم حتى يتمكنوا من تأسيس دولة هم أعمدتها العسكرية الناهضون بالعمران فى كل أنحائها .

ومن المعروف أن المرابطين قد اهتموا بالجيش نظرا لأنه يعد أهم أجهزة الدولة المرابطية ودعامتها الأولى ، باعتبار أنها دولة عسكرية نشأت فى مهاد المعارك بين لمتونة والقبائل الخصيمة وثنية كانت أو غيرها ، وأن لمتونة كانت تخرج منها ظافرة منتصرة ، فكان ذلك أيضا مما مكن لها فى بسط سلطانها على المغرب الإسلامى وإقامة

---

(١) الدكتور على الدين عبداللطيف - دراسات فى تاريخ الأندلس الإسلامى جـ١ ص١٣١ .

(٢) الأستاذ / فوزى محسن عبدالباقى - بلاد المغرب فى ظل الصنهاجين ص١٣٣ .

الدولة المرابطية الكبرى فيه[1] ، التى أدت مهمة عظيمة فى خدمة الإسلام وأهله أبـان فترة وجودها مع قوادها الأوائل .

أجل استطاع عبدالله بن ياسين الجزولى هذا أن يمسك بزمام الأمور فى تلك البلاد لما تمتع به من صفات القائد المسلم النـاجح العـادل[2] ، وأن يتقدم الصفوف فـى كـل موقعة يذهب جنوده اليها غير هياب بما ينتظره من نهاية ، حتى تمكن من فتح الجزء الأكبر من المغرب – خلال فترة ليست طويلة ، فتحا مرابطيا جديدا ، وان يفرض كذلك هيبة الدولة الوليدة .

كما تمكن من استرداد بعض ما سلبه الغزاة المعتدون من أطراف البلاد الإسـلامية فى الأندلس خلال الفترة التى حكم فيها بعض ملوك الطوائف ٤٠٠/٤٨٤م الذين كانوا يتنافسون فى البغضاء ، ويحشدون كل جند لهم فيه ، والعداوة والدسائس لإخوانـهم ، تاركين أعداءهم يعبثون بأطراف البلاد الإسلامية ، ويقتطعون منها بقدر مـا يتمكنـون ، وربما أطراف الدويلة التى يحكمها ذات الملك[3] أو الأمير ، وهو غاض الطرف عنهم .

من ثم فإن عبدالله بن ياسين الجزولى هذا قد فرض على الآخرين احترام دولته ، وأعاد للبلاد الإسلامية – التى سيطر عليها – هيبتها غير ان الأيـام لم تمهلـه طويـلا ، فقد انتهى أجله وهو يجاهد فى سبيل الله بإحدى المعارك ٤٥٠هـ التـى كـان يحـرص على المشاركة الفعالة فيها ، والقيام بدوره القيادى كاملا خلالها .

---

(١) الأستاذ / محمد عبدالله عنان – دولة الإسلام فى الأندلس – القسم الأول عصر المرابطين والموحدين ص٤١٨

(٢) هى صفات ضرورية فى القائد المسلم فالعدل أساس الحكم ، والشرع هو أصوله التى يقوم عليها .

(٣) راجع فى هذا الشأن ما ألمحنا اليه أثناء حديثنا عن عصر ملوك الطوائف فى الأندلس من هذا الفصل فى ذات الكتاب .

[٢] سليمان بن عدو

واحد من الفقهاء الزهاد الذين تميزوا بالصلاح وممارسته مع أنفسهم وغيرهم ، انضم إلى المرابطين فى مرحلة مبكرة من عمره ، وظل يرقى درجات العلم والمعارف بينهم حتى صار ضمن جماعة الفقهاء والمتميزين الذين لهم حضور شخصى وهيبة ذاتيه ، ونظرا لما كان يتمتع به الرجل من خصال حميدة بجانب استعدادات ذهنية(١) ، فقد حرص عبدالله بن ياسين الجزولى على الاستعانة بسليمان هذا فى الكثير من المواقف ، واعتباره المساعد له فى القيادة لما فيه من الملكات المؤهلة لتلك المهمة .

فلما أستشهد عبدالله بن ياسين الجزولى فى ذات الموقعة ٤٥٠هـ انتقلت رئاسة المرابطين إلى صديق الدرب زميل الكفاح سليمان بن عدو ، ولذا فإن المؤرخين لا يعتبرونها رئاسة وراثية ، وإنما هى زعامة روحية من نوع خاص(٢) ، لأن القيادة فن يحتاج الدربة والممارسة ، وسليمان بن عدو يتمكن من ذلك كله ، ثم هو فقيه زاهد غير طالب للدنيا ، من ثم فإن تلك الرئاسة لا تخرج عن كونها نوعا من الإعلان عن ما يتمتع به الرجل من قدرات ، غير أن فترة حكمه ورئاسته كانت وجيزة جدا ، إذ استمرت عامين فقط ٤٥٠/٤٥٢هـ ، وهى إرادة الله تعالى ، ولا راد لما قضاه وقدر .

[٣] أبو بكر بن عمر ٤٥٢/٤٦٥هـ.

هو أحد اخوة يحيى بن عمر خليفة يحيى بن إبراهيم الجدلى ، تميز بالحب لله والوفاء لدينه ، وكان دمث الخلق طيب القلب ، مرهف الحس صحب عبدالله بن ياسين الجزولى فى الرباط الذى أنشأه الثلاثة ، وتعلق بحبه وتقليده فى الزهد

---

(١) الدكتور / عبدالكريم محمد الخياط - قبائل العرب فى الأندلس ص٢٧٧ .

(٢) الدكتورة / لمان محمد عمران - دولة المرابطين فى الأندلس ص٢٥٠ .

والصلاح[١] ، والرغبة فى نيل شرف الجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الدين ، وظل جنديا أمينا مخلصا رغم تفوقه العلمى والفقهى على غيره ، وسبقه لبعضهم فى الانطواء تحت جناح مؤسسى دولة المرابطين .

فلما مات عبدالله بن ياسين الجزولى لم يفكر أبو بكر بن عمر فى منازعة سليمان بن عدو الرئاسة لأنه يراها أمانة وحملا ثقيلا من الأولى أن يبتعد بنفسه عنه[٢] ، فلما مات سليمان بن عدو لم يكن هناك من بديل يقوم بدور الرئيس للدولة فى الأعباء المنوطة به ، وإنما كانت الرئاسة جماعية فى فقهاء المالكية الذين اعتبروا تعاليم ابن ياسين أمرا ضروريا ، والمحافظة على ما قام به واجبا دينيا وسياسيا وقوميا أيضا[٣] أبان تلك الفترة من حكم المرابطين على الأقل .

من ثم فقد أخلصوا لقيادة الرجل الذى أحبوه وتعلقوا به ، وبخاصة أنها واقعة فى رحاب الدين الإسلامى نفسه ، ومستمدة من نصوصه السمحاء ، فكان عليهم أن يبلغوها فى كل بلاد المغرب الإسلامى ، لكن ذلك كله يحتاج شخصا قويا يكون هو المعبر عن الدولة التى تتمثل فيه[٤] ، فكان من المناسب اختيار أبى بكر بن عمر هذا ليكون متحملا أعباء ذلك المنصب ، وبالتالى صار الفقهاء فى ذات العصر الرؤساء ، وما عداهم من العسكريين أمراء ، وازداد نفوذ الفقهاء كثيرا مما اثر على حركة النهضة العلمية فى جانبها المادى .

---

(١) الدكتور / عبدالكريم محمد الخياط - قبائل العرب فى الأندلس ص٢٨٥ .

(٢) الدكتورة / لمان محمد عمران - دولة المرابطين فى الأندلس ص٢٦١ .

(٣) لما قيل من أن الرجل كان فقيها مالكيا ، وانه دعم المالكية بقدر ما أمكنه ، وكانت تلك المواقف تنال الكثير من عنايتهم به كما كان هو الأخر يهتم بهم أيضا .

(٤) الدكتورة / لمان محمد عمران - دولة المرابطين فى الأندلس ص٢٧٥ .

بيد أن ابا بكر بن عمر هذا كانت إمكانياته الذهنية أعلى من تراكمات الفقهاء ، وتطلعاته فى حماية الدولة الإسلامية أكبر من تطلعات غيره بكثير ، فلما حاول القيام بتنفيذ ما يجرى فى أعماقه حدثت تحولات غير طبيعية قلبت مجرى الأحداث بعض الشيء ، ثم تطورت الأمور بسرعة ، حتى انقلبت الأمور فى المرابطين تماما[1] ، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرون فترة رئاسة أبى بكر بن عمر علامة بارزة فى تحول دولة المرابطين من حركة دينية خالصة غرضها التمسك بشرع الله ، وإبلاغه للعالمين مع المحافظة عليه إلى ثورة سياسية غرضها الوثوب للحكم[2] ، والرغبة الجامحة فى السيطرة على المغرب بصورة عامة على ناحية سياسية وعسكرية بعد أن كانت دينية .

ولم يسلم الأمر للرجل إذ لم يكد يمضى فى مشاريعه هذه ، محاولا التوفيق بين ما فى عقله وتحقيق رغبة الفقهاء قاطعا جزءا كبيرا من شوطه الذى ابتدأه ، حتى غدر به ابن عمه يوسف بن تاشفين أحد قواده المبرزين ، وخلعه من الرئاسة ، فأحس الرجل بحجم المسألة ، وراح يتحسس أيامه كرئيس مخلوع ، أو ملك بلا نفوذ ، أو أمير مهجور[3] ، فلم يطب له الأمر ، ولما كانت هناك معارك دائرة بالسودان بين المرابطين وخصومهم فقد لحق الرجل بالمجاهدين هناك علة ينال فضل الجهاد ، وشرف الشهادة التى تحققت له فعلا عام ٤٦٥هـ ، حيث استشهد فى إحدى المعارك الدائرة ببلاد السودان[4] تاركا زمام الدولة المرابطية فى قيادة يوسف بن تاشفين .

(١) الدكتور / بدر الدين أبو طالب - الصراعات القبلية وأثرها على مسلمى الأندلس ص٣٩١ .

(٢) العلامة ابن الخطيب أعمال الأعلام ص٢٣٣ .

(٣) الدكتورة / لمان محمد عمران - دولة المرابطين فى الأندلس ص٢٨١ .

(٤) العلامة لسان الدين بن الخطيب - أعمال الأعلام ص٢٣٣ .

ويذهب أحد الباحثين من المعنيين بالتاريخ إلى أن الرجل أصيب فى تلك المعركة ولم يمت أو ينل شرف الشهادة وأنه ظل يعـانى آلام الإصابـة التـى لحقـت بـه حتـى انقضت حياته فى ٤٨٠هـ ، وهى المعتبرة عنده كنهاية لأبـى بكـر بـن عمـر باعتبـاره رئيس دولة المرابطين[1] ، حتى تلك الفترة وان لم يكن على الناحية الفعلية فعلى الأقل من الناحية الشكلية ، ويذهب غيرهما إلى أن صفة الرئاسة لأبى بكـر بـن عمـر لم تـزل عنه بخلع ابن عمه له ، لأنه نوع من الإبعاد للرجل عن إصدار الأوامر المتعلقة بالأحكام العسكرية فقط ، التى كانت يجيدها يوسف تاشفين أكثر من إجادة أبـى بكـر بـن عمـر لها[2] ، فأراد ابن تاشفين أن يتحمل عن ابن عمه أبى بكر بن عمـر الأعبـاء العسـكرية ويتركه هو للأعباء الفقهية التى كان قادرا عليها متميزا بها ، ونحن نفـوض الأمـر فـى المسألة لأنه لا دليل عندنا عل الترجيح بينهما ، ومن وجد دليل الترجيح فله القيام به .

[٤] يوسف بن تاشفين

يعد أحد القادة العسكريين الذين لهم دور بارز فى العسكرية الإسـلامية ، وأخـذ المرابطين ابن عم أبى بكر بن عمر الأمير السابق عليه ، لما رأى أن المرابطين بحاجة إلى قيادة قوية غير متوفرة فى أبى بكر بن عمر ، تغلب هو علـى ابـن عمـه هـذا مـن تلـك الناحية ، واستأثر بالسلطة حتى تمكن من إقامة دولة المرابطين القوية فى المغـرب[3] ، وجمع حولها كل بطون صنهاجة وغيرها ممن انطوى تحت لوائه .

---

(١) الدكتورة / السيد عبدالعزيز سالم - المغرب الكبير جـ٢ ص٧٢٦ ، وينسب المؤلف الفاضل هذا الرأى إلى الدكتور / حسين محمود .

(٢) الدكتورة / لمانى محمد عمران - دولة المرابطين فى الأندلس ص٢٧٥ .

(٣) كانت دولة المرابطين موجودة فى بلاد المغرب وفى حدود ضيقة ، ولكنها لم تكن بالقوة التى عرفت لها أيام يوسف بن تاشفين الذى جعل همه تثبيت الدعائم وفرض سلطان الدولة وتوحيد الدويلات الإسلامية فى هذه المنطقة تحت قيادة واحدة .

فلما رأى من ضعف ملوك الطوائف، وثورة الدخلاء على المعتمد بن عباد أمير اشبيلية ، وتطلع الأعداء للنيل من هذه الإمارة ، ورأى أنهم سوف ينقضون على الدويلات الإسلامية واحدة تلو الأخرى فقد أصابه الفزع ، غير أنه لما استنجد به المعتمد بن عباد هذا انتهزها فرصة لتحقيق أماله وقاد جيشه لمواجهة الخصوم الأعداء في معركة الزلاقة ٤٨٠هـ التى انتهت بانتصار المسلمين وهزيمة الأعداء[١] ، الذين كانت قيادتهم في يد الفونسو السادس ، ذلك المسيحى الذى تزعم القوات المسيحية التى كانت قد نزلت بلاد الأندلس الإسلامى ، واستولت على طليطلة قلب الأندلس عام ٤٧٨هـ[٢] ، وكانت جرحا غائرا فى عقل وقلب كل مسلم غيور على دينه .

فلما نهض ابن تاشفين لنجدة أهل الإسلام هناك كان من الضرورى مواجهة القوات الغازية بقيادة الفونسو السادس ، وقد نجح ابن تاشفين فى هزيمتها على وجه كامل فى معركة الزلاقة[٣] ، وفرض عليهم الجزية وردهم خاسئين حتى أنهم أدركوا عن يقين عدم تهاون أهل الإسلام فى الدفاع عن ديار الإسلام مهما كانت الظروف .

وبهذا الانتصار استعاد المرابطون دولة الإسلام وعزته فى الأندلس ، بعد أن أوشك أعداء الإسلام فى التكالب عليه ، وأحكام أغلالهم حوله ، وكم عمل اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الديانات الوثنية على أن تأفل شمس الإسلام فى الأندلس من وقت باكر جدا ، وقد نجح يوسف بن تاشفين هذا فى كبح جماحهم ، وتحرير سرقسطة من

---

(١) راجع فى هذا الشأن : ملوك الطوائف فى الأندلس ، المغرب الكبير ، دولة المرابطين فى الأندلس ، وغيرها من المؤلفات التاريخية التى عنيت بذلك الجانب .

(٢) الدكتور السيد عبدالعزيز سالم - المغرب الكبير جـ٢ ص٧١٨ .

(٣) الدكتور / حسين محمود - قيام دولة المرابطين ص٢٨٨ ، وراجع أيضا ص٢٧٣ ، وما بعدها من نفس الكتاب لذات المؤلف ، ففيها تفصيل لتلك النواحى على الناحية التاريخية التى غلبت عنده .

أيدى القشتاليين الذين كانوا قد وضعوا أيديهم عليها[١] فى غيبة من أهل الإسلام عن حمايتها وبهذا أعادها إلى المسلمين ، كما كانت ترفرف عليها أعلام النصر ، وتجرى فيها أحكام الله تعالى .

غير أنه من المؤسف له أن القشتاليين ظلوا يتآمرون على سرقسطة حتى نالوها مرة أخرى ، فيذكر ابن الخطيب أن سرقسطة ظلت تتمتع بحكم ذاتى أثناء فترة حكم أحد ملوك الطوائف – وهو المستعين بالله أحمد بن هود – لها ، ولم يفكر ابن تاشفين فى خلعه ، أو ضمها اليه ، كما أن المرابطين لم يفكروا فى الاستيلاء على سرقسطة الا بعد وفاة المستعين بالله نظرا للعلاقة الودية التى كانت قائمة بين يوسف بن تاشفين والمستعين بالله ، وحرصهما على القيام بتعاليم الله التى شرعها جل علاه .

فلما مات المستعين بالله خلفه على حكمها ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة[٢] ، ولم يكن هذا الوليد يجرى على سيرة أبيه ، محبا للمرابطين أو ميالا لأهل الإسلام ، وإنما كان ولاؤه وميله للأعداء من المسيحيين وغيرهم ، وظل على ذلك الحال من الولاء لهم والتعاطف معهم حتى مكنهم منها فيما بعد وبئس ما فعل .

إذن ابن تاشفين خف لنجدة ملوك الطوائف أول الأمر ، ثم تردد على الأندلس مرات عديدة لحمايتها من أيدى الأعداء المناوشين لها ، فكان جنده بمثابة جيش الإنقاذ المستعد فى كل وقت للدفاع عن ثغور الإسلام ، وفى المرة الأخيرة رأى يوسف

---

(١) العلامة لسان الدين بن الخطيب – أعمال الأعلام ص٢٣٣ .

(٢) العلامة لسان الدين بن الخطيب – أعمال الأعلام ص١٧٣ وما بعدها .

بن تاشفين هذا ضرورة البقاء فى الأندلس لا حبا فى السلطة ، وإنما حتى يظل حاميا للبلاد[١] مؤمنا لأهلها حق العبادة الصحيحة ، بعد العقيدة السليمة رادا أطماع الأعداء .

لكن بعض الأمراء راحوا يدسون عليه الوشايات ويلقون الشائعات ، ويلفق الأعداء له الاتهامات ، ومن ثم قرر الرجل القضاء على باقى سلطان ملوك الطوائف المتنازعين ، وتوحيد الأندلس والمغرب الأقصى معا ، وتكوين دولة واحدة متكاملة تحت إمرة الإسلام ، وقيادة يوسف بن تاشفين لتحفظ على المغرب الإسلامى كله كرامته وهيبته[٢] ، وتصد المتربصين به ، وفى نفس الوقت تطهره من بقايا القشتالين الفارين داخل البلاد ، وتقضى على توابعهم ، ممن يقفون معهم .

وقد تمكن المرابطون من إقامة دولتهم وتامين حدودها ، وقد تم ذلك كله فى فترة وجيزة ، وكانوا بحق مصدر قلق دائم لأعداء الإسلام فى كل مكان عامة[٣] ، وفى الأندلس والمغرب خاصة ، وظل الأمر كذلك حتى مات يوسف بن تاشفين ٥٠٠هـ بعد أن ثبت قواعد دولة المرابطين التى انطلق بها من مراكش عابرا البحر حتى ضم الأندلس ووحدها جميعا تحت ولايته عام ٤٩٣هـ ، فلما مات هو عام ٥٠٠هـ تولى المرابطين بعده ابنه على الذى كان له دور أخر فى تلك الدولة .

---

(١) لما سبق القول به من أن المرابطين دولة قامت فى الأصل على حماية الدين والعقيدة والأخلاق الإسلامية ، وأنها كانت أقرب شبها بالدول العسكرية فى كل ما يتعلق بها من هذه الناحية .

(٢) الدكتورة / لمان محمد عمران - دولة المرابطين فى الأندلس ص٢٨٠ .

(٣) كلما كانت الدولة إسلامية قولا وفعلا ، فإنها ترهب الكافرين مهما كانت قوتهم العسكرية ، لأن قوة الإيمان أعلى من كثرة العدو والعتاد ، وفى تاريخنا المعاصر قامت الدولة الإسلامية فى ايران ١٩٧٩م ، فتراجعت أمريكا أكبر قوة فى الوقت الحاضر عند تهديداتها لها ، وها هى الآن ٢٠٠٠م تخطب ودها ، وتعمل على إرضائها .

[٥] علي بن يوسف بن تاشفين :-

رجل دربته الأيام واختبرته الظروف فاكتسب حنكة لم تعهد إلا فى أمثاله ، نشأ محبا للعلم والعلماء ، وكان ميله الفرعى نحو الفقه المالكى ، يغلب غيره من أنواع المعارف الفقهية ، ولذا فإن الفقهاء المالكيين قد نالوا فى عصره رعاية أكبر من رعاية غيرهم[١] ، وتذكر الروايات الغير قليلة أن ميل على بن يوسف بن تاشفين هذا للفقه والفقهاء كان بصورة واضحة جدا ، وكان تنامى سلطانهم من حوله حجر عثرة فى دخول غير الفقه المالكى إلى تلك البلاد ، فلم يقدر للفقه الشافعى مثلا أو الحنفى فضلا عن الحنبلى أو غيره من المذاهب الفقهية الأخرى[٢] ، أن يدخل تلك الديار أو يكون له شيء من الوجود المعلن بصورة جماعية وان وجد فى صور قليلة لكن لم تكن له السيادة التى هى للفقه المالكى .

وأية ذلك أن عليا هذا كان على ورع وزهد جعلاه ينظر للفقهاء نظرة فيها التعلق بهم ، والرغبة فى اتباع نصيحتهم فى كل أمر يعرض له[٣] ، ويذكر البعض أنه أوصى عماله وقضاته على البلاد الإسلامية ، ألا يقطعوا أمرا الا إذا وافقهم عليه أربعة من الفقهاء ، فتربع هؤلاء على عرش الدولة ، وتمتعوا بالمكانة الكبيرة والأرزاق الوفيرة ، مما أتاح الفرصة فى أن ينضم لتلك الطائفة أناس من مدعى الفقه المالكى ، وما هم بفقهاء

---

(١) الدكتور / على الدين عبداللطيف - دراسات فى تاريخ الأندلس الإسلامى حـ١ ص١٣١ .

(٢) من المذاهب الفقهية المشهورة :-

[١] الأحناف ، [٢] الحنابلة ، [٣] الشافعية ، [٤] المالكية ، [٥] الجعفرية ، [٦] الزيدية ، [٧] الاباضية ، [٨] الأمامية - راجع المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للدكتور / عبدالكريم زيدان

(٣) الدكتورة / هناء محمد طلبه - دراسات فى دولة المرابطين ص٢٥٧ - الطبعة الأولى ١٩٧١م .

أبدا ليلبسوا على الناس فيما يلبسون ، وليكتسبوا ما يريدون على حساب الدين[1] ، وربما لم يكونوا من أهل الدين الإسلامى والفقه القائم على خدمة الإسلام نفسه .

ولما ازداد نفوذ الفقهاء إلى هذا الحد ، وقويت شوكتهم بحيث لم يعد الأمير قادرا على تشذيبها ، فقد كانوا خطرا على الرجل نفسه ، إذ دفعوه إلى التعصب الذى انتقل به من مجرد التعلق بمذهب فقهى إلى " تحريم الاشتغال بالفلسفة وعلم الكلام " بل أنه توعد بالعقاب الشديد كل من اشتغل بأى منهما ، أو وجد عنده شيء من كتبهما ، وقد بلغت به الحماقة مبلغا أدى به إحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالى[2] لمجرد إفتاء الفقهاء له بأن فى الإحياء خطرات فلسفية وقضايا تتعلق بالمسائل الكلامية ، برغم شهرة الإمام الغزالى الفقهية .

وقد امتدت فترة حكم على بن يوسف هذا للمرابطين من عام ٥٠٠هـ ، وهى السنة التى توفى فيها والده يوسف بن تاشفين ، وظل فى الحكم حتى مات ، وكان مركز الفقهاء لدى على بن يوسف هذا يعلو باستمرار ، فما من قرار أتخذه الرجل إلا وكان للفقهاء فيه الأثر الأكبر حتى يمكن القول بأن أى قرار فإن الفقهاء هم الذين صاغوه ، أما الأمير فهو الذى أوقعه أما رجاله فهم الذين قاموا عليه ونفذوه .

وإزاء ضيق أفق الحاكم ، فهمه الخاطئ للتدين والورع ، وتركه الأمر للفقهاء الذين لم تسلم نواياهم والمندسين من أشباه الفقهاء ، وانصرافة عن تدبير شئون الدولة تاركا ذلك إلى الولاة الذين لم يكن لهم من هم الا الترف والملذات وجمع المال ، فقد تداعى

---

(١) الدكتور / عبدالمعطى محمد بيومى – الفلسفة الإسلامية فى المشرق والمغرب جـ٢ ص٦٤ – الطبعة الأولى .

(٢) الدكتور / سليمان سليمان خميس – نهاية الفلسفة الإسلامية فى المشرق وبدايتها فى المغرب ص٢٤ ، والفلسفة الإسلامية فى المشرق والمغرب جـ٢ ص٦٤ .

بنيان دولة المرابطين واستولى الفرنجة على كثير من بلدان الأندلس وولاياتـها[1] ، أبـان حكم على بن يوسف هذا ، حيث استطاع الفونسو المحارب التمكن من هزيمـة جيـش المرابطين أمام سرقسطة التى طردوا منها قبل ذلك ، ودخولهـا مـع الاستيلاء عليـها ٥١١هـ ، بـل وجعـها الفونسـو المحـارب عاصمـة لـه[2] ، ومقـرا لقيادتـه العسـكرية والسياسية ، ومنطلقا يقفز منه إلى باقى بلدان العـالم الإسـلامى فـى الأندلـس والمغـرب القصى والأدنى .

[٦] تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ٥٣٩/٥٣٣هـ

كان هو الابن الأكبر لعلى بن يوسف ، فلما مات الرجل علـى بـن يوسـف تـولى ابنه تاشفين هذا زمام الأمور ، ولم يكن هو الرجل القادر على إخافة الأعداء أو تحجيم الفقهاء ، أو فرض سلطانه على الآخرين ، وإنما كان مطمعا لهؤلاء جميعـا ، فاقـترب الأعداء من أطراف البلاد أكثر من ذى قبل ، وتنامى سلطان الفقهاء إلى أبعد ممـا كـان عليه ، وتعددت الخلافات حتى أوشكت البلاد كلها على النهاية ، مما دفع بالكثيرين إلى التعبير عن حالة السخط من تلك الحالة المتردية ، من ذلك ما ذكره الشاعر عبدالله بن فرج اليحصبى المشهور بان الغسال[3] ، حين قال :

يـا أهـل أندلـس حثـوا مطيكـم ∴ فمـا المقـام بـهـا الا مـن الغلـط
الثـوب ينسـل مـن أطرافـه وأرى ∴ ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحـن بـين عـدو لا يفارقنـا ∴ كيف الحياة مع الحيات فى سفط[4]

---

(١) الدكتور / عبدالمعطى محمد بيومى - الفلسفة الإسلامية فى المشرق والمغرب جـ٢ ص٦٤ ، وراجع للدكتور / محمد غلاب - الفلسفة الإسلامية فى المغرب .

(٢) الدكتور / السيد عبدالعزيز سالم - المغرب الإسلامى الكبير جـ٢ ص٧٢٧ .

(٣) العلامة ابن المقرى - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ٦ ص٨٤٠ .

(٤) السفط كلمة فارسية الأصل ، تعنى نوعا من الأشربة ترتاده الحيات ، وتترك فيه بقايا السم ، ولو أرتاده إنسان ما - هلك المعجم الوجيز باب السين .

والشاعر قد عنى بالسفط هنا أعداء الإسلام جميعا بالأندلس الذين صاروا حيات ، وكل مكان بالأندلس صار مرتعا لها تخرج السم فيه ، وبالتالى فإن كل إنسان فى الأندلس سيهلك بتلك السموم التى يخلفها هؤلاء الأعداء الكافرون ، فتصير الحياة معهم فى مكان واحد مستحيلة ، بل هو الموت الأكيد ، الذى عبر عنه الشاعر بالطريقة التى أمكنه استخدامها .

ويبدو أن طبيعة الحياة القاسية التى عاشها المرابطون أول أمرهم بالصحراء فى الرباطات التى أنشأوها لذلك الغرض على ما سبق القول به ، وكونهم عاشوا تحت ضغط ظروفه[1] ، وخضعوا لقوانينه قد جعلهم ذلك كله مجبولين على التقشف فى الحياة والمصابرة بجوار الحرص على التضحية ، وعدم الطمع فى ألوان الترف ، فواجهوا الحياة ونوازلها بالبسمة والرضا بالأقدار ، وكان ذلك من عوامل تغلبهم على شدائد الحياة وانتصارهم فى المعارك التى دخلوها .

فلما تفيأوا ظلال النعيم الوارفة بالأندلس الإسلامى ، ورفلوا فيها ، أنساهم ذلك بعض ما كانوا يه متمسكين ، فتخلوا عن بعض المبادئ والأصول التى قامت عليها حركتهم فى مراحلها الأولى مع عبدالله بن ياسين الجزولى[2] ، وكان ذلك التخلى عنها من عوامل ضعفهم وتفرقهم إلى الحد الذى أطمع فيهم المتربصين بهم فيما بعد ونالوا منهم كل منال .

---

(١) الدكتور / على الدين عبداللطيف – دراسات فى تاريخ الأندلس الإسلامى جـ١ ص١٢٧ .

(٢) راجع ما ألمحنا به عن الرحل فى هذا الفصل أثناء حديثنا عن قيام دولة المرابطين .

أثر المرابطين على الحركة العقلية

۞ مما لا شك فيه أن سيادة مذهب فقهى بعينه، ومحاربة المذاهب الفقهية أو الفكرية الأخرى يؤدى إلي الجمود، وبالتالي فالحركة العقلية فى الأندلس قامت حولها ظواهر غير طبيعية قد أثرت سلبيا على الإبداع الفكرى [١]، من أبرز ذلك :-

[١] **تحريم البحوث الكلامية والعلوم العقلية** ، وما يتعلق بالفلسفة الإلهية والطبيعية ، فأدى ذلك إلى التراجع الفكرى للخلف بدل التقدم للأمام ، حتى باتت الأفكار حبيسة رءوس أصحابها بعد أن كانت قوية طليقة ، ولم يكن هناك أمر يدفع لذلك التحريم على الناحية الشرعية .

[٢] **شيوع الجوانب النظرية وحدها** : فبدل أن تؤاخيها الجوانب العملية العلمية تخلت عنها واستقلت وحدها ، وبالتالى فقد ظهرت جماعات الأدباء والشعراء والقصاص ، بجانب جماعات الكتاب والشعراء الناثرين ، فصارت الحركة العقلية فى عصرهم تمثل لونا من الغطاءات الظاهرية فقط لنوع من الثقافة التى يغلب عليها التسطح الفوقى بدل التعمق فى القواعد[٢] ، والأخذ بأسباب التقعر فى البحث العلمى المستمر .

[٣] **انتشار مذهب فقهى بعينه** ، جعل الفتاوى العديدة تصدر تباعا تحمل كلها جوانب التحريم لكل ما يصدر من نتاجات عقلية ، غير متوافقة على ما يقف عليه أصحاب المذهب المنتشر نفسه ، ومن الطبيعى أن يظهر متسلقو الأكتاف ، هواه

---

(١) الدكتورة / لمان محمد عمران – دولة المرابطين فى الأندلس ص٢٨١ .

(٢) راجع للأستاذ / محمد عبدالله عنان – دولة الطوائف – العصر الثالث – القسم الأول – عصر المرابطين ص٤٣١/٤٤٠ .

ركوب الموجة العالية[1] ، ومن اليسير عليهم أن ينسبوا أنفسهم للفقه والفقهاء ، وحينئذ سوف يقلدهم من لا يعرف طرائق البحث العقلى المبدع ، فيتحول الناس بقدراتهم من الإبداع إلى مجرد التقليد ، والتحاف قواعد التلقين التى يقوم بها هؤلاء الأدعياء ، والسير خلفهم إلى حد الاتباع .

[٤] **الضغط المستمر على المفكرين والمبدعين** ، حتى لا يخرجوا بأفكارهم إلى حيز التعبير الواضح عنها ، أو التنفيذ الفعلى لما فى رءوسهم من أفكار بعيدة عن مجال الشعراء والفن ، فأدى ذلك إلى تقهقر الحركة العقلية وعدم قدرتها على النهوض السريع الذى كان ينتظر منها .

---

(١) الدكتورة / هناء محمد طلبه - دراسات فى دولة المرابطين ص٢٦٥ .